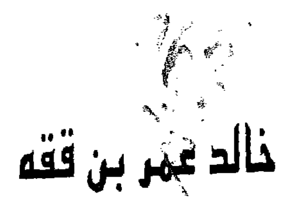
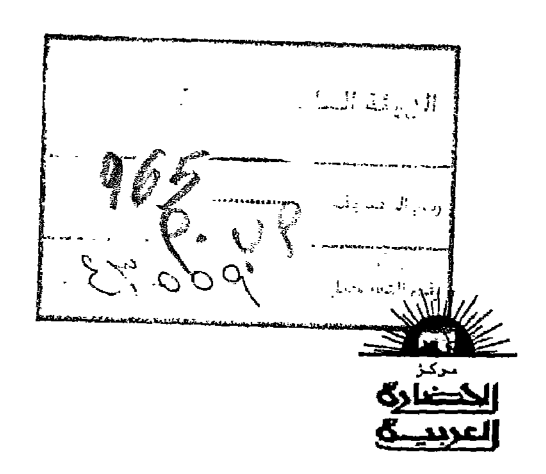


خالد عمر بن ققه

أيام الفزع في الجزائر

رؤية صحفي في قلب الأحداث



أيام الفزع في الجزائر

رؤية صحفي في قلب الأحداث

خالد عمر بن ققه

الطبعة العربية الأولى : يناير ١٩٩٨

رقم الإيداع : ١٣٩٩٥ / ٩٨

الترقيم الدولي : 5-117-291-977



رئيس المركز

على عبد الحميد

مدير المركز

محمود عبد الحميد

الجمع والصف الإلكترونى
مركز الحضارة العربية
تنفيذ : محمد الغليونى

٤ ش العلمين عمارات الأوقاف
ميدان الكيت كات
تليفاكس : ٣٤٤٨٣٦٨

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على سيدنا محمد

وبعد

هذه الأوراق تروي جانباً من حياة الكاتب . وأيضاً جوانب من حياة الجزائريين - عامتهم وخاصتهم - ففيها تتداخل القضايا الخاصة بالقضايا العامة . والإرهاب بالجهاد ، والثقافة بالسياسة . والتمرد على السلطة بتصفية الحسابات بناء على تركة ثقيلة من الهموم المشتركة وغير المشتركة ، لذلك تنطلق من المشكلة الفردية، لكنها في نفس الوقت تركز عليها ضمن السياق العام للأحداث التي تواجهها الجزائر .

وبالعودة إلى مطالعة وقراءة الأحداث التاريخية للجزائر بوعي ، سنجدها واجهت مصائب أكبر ، وحالات فوضى أعم ، وصراع بين الأفراد والجماعات أشمل، وهزات زلازل اجتماعية أوسع ، حتى أنه في بعض الأحيان دفعها ذلك إلى توتر العلاقات الاجتماعية ، وكانت التكلفة في كل ذلك باهظة ، ومع ذلك كله فقد ذهب الفعل السيء وبقيت الجزائر ، فهل ستبقى اليوم بعد كل المجازر ؟ .

لايراودني أي شك في بقاء الجزائر" الأرض، السيادة ، الشعب " ، بل

إنني أعتقد أنها ستعود أقوى مما كانت عليه وهذا ليس تفاؤلاً أو حتى مجرد أمنية ، ولكنه حقائق التاريخ ، رغم أن كل قوى الشر الداخلية والخارجية تعمل على إلغائها من الوجود ، صحيح أن هناك بدائل ستحل لمواجهة الدولة والقضاء عليها وقد تفلح بعض الوقت ، ولكن لن تدوم .

غير أن البقاء والعودة القوية مرهونان باكتشاف الجزائريين لأنفسهم وللعالم من حولهم ، سواء من خلال قراءة الأفعال الماضية المتراكمة أو من خلال فهم ما يحدث الآن ، مع الاعتراف بأن هناك جريمة كبرى تواجهها بلادنا شاركنا فيها جميعا ، ولمنع استمراريتها أو تكرارها علينا أن نعمل جاهدين على تثبيت قواعد الدولة على ركائز متينة متُحدّين ما يطرح الآن من تطورات وآراء تريد تكريس هذا الواقع المرير السيء .

فمعظم الآراء والتحليلات تركز على الصورة السوداوية للجزائر، وهي بالفعل كذلك ، ولكن من غير المعقول أو المقبول أن تستمر تلك الصورة الواقعية حيناً والمضخمة أحياناً أخرى، لأن واقع الأحداث واستمراريتها يقول عكس ذلك ، غير أننا لاننكر أن هناك فزعًا في الجزائر تطور مع الأيام ليتحول من فزع خاص بأفراد أو نخب إلى فزع عام لكل المجتمع ، والشعور به في حد ذاته حالة صحية ، وهو ما سيتابعه القارئ في هذه الصفحات .

إنها صفحات كتبت بآهاتي وآلامي ، عايشت أحداثها واندمجت فيها وتفاعلت معها سلبًا أو إيجابًا ، قبولاً أو نفوراً، تضامناً أو رفضًا ، تعاوناً أو صراعاً ، ورغم ذلك كله عشت أياما أنتظر التحول المرتقب، التحول في

المواقف والأحداث وحتى الأفعال ، لكن ذلك لم يحدث .

ولم أكن -آنذاك - على وعي تام بما يحدث ، بالرغم من أن كل مظاهر التحول نحو الجزائر التي نعرفها أو تلك التي رسمنا صورتها في أذهاننا كانت واضحة ، أو على الأقل بادية في التشكل ، جزائر جماعات ، وليست جزائر لكل الجزائريين.

لقد كانت العاطفة هي التي تحركنا ، فوراثة الدين الاسلامي والاقتناع به، والاحتماء به أو رهاننا عليه لحل مشاكلنا، كل هذا جعلنا لانميز في لحظات الحسم بين الدين في عمقه وصفاء رسالته ، وبين أخطاء البشر الظاهرة والخفية باسم الدين ، أي إننا التقينا نحن والحاملين لشعاراته والمعادين له على أرضية واحدة ، وكان المفروض أن يبدأ فزعنا على الإسلام وليس على أنفسنا ، وبما أننا لم نفعل فقد انتهى بنا الأمر إلى الهروب أو الاغتيال أو السجن . وأمر الله سبحانه نافذ فينا لامحالة .

لاشك أن الأغلبية منا كانت مؤيدة للمشروع الإسلامي - بنسب متفاوته - لكنها أرادت ركوب الموج من أجل أهداف بشرية متضاربة - في الغالب - مع أهداف الدين وإن حَمَلَتْ شعاراته ، وحين كان البعض منا يرفض تلك المقولات التي تطرح باسم الدين كان يقابل بسخط واستنكار من الذين تحركهم العاطفة ، أو من أولئك الذين يقدّمون مصالحهم على كل هدف آخر نبيل وهادف .

لذلك كله تحول الأنصار إلى قوة مدافعة ، وتم استعراض القوة في شوارع العاصمة كما يروي الفصل الأول من هذا الكتاب، ثم تطور الفزع

ليتحول من أسلوب الهجوم بالكلمات إلى ممارسة العمل الإجرامي مباشرة أي الاغتيالات التي طالت الشرطة ، وبعد خمسة أشهر فقط تجاوزت الحدود لتنهي حياة الرئيس "محمد بوضياف" علانية وأمام الملأ وكاميرات التليفزيون .

إذن لاغرو حين يعم الفزع ليس لكون جماعات الإجرام أصبحت قوة نافذة ؛ وإنما لأنها متعددة وكثيرة ولايجمعها هدف واحد ، هذا من ناحية ؛ ولأنها بدأت توجّه سلاحها ضد النخبة من ناحية أخرى ، وكان الصحفيون هم وقود تلك الحرب.. وبذلك انتقل الفزع إلى كل مثقف .. ونتيجة لكل ذلك أصبحنا – نحن الصحفيين – نقضي ليلنا ونهارنا في حال ترقب لخطر قادم وقاتل ، ولم تطل العملية ، لأن كثيرين منا هاجروا ، وآخرين أغتيلوا ، وأيضا كثيرين تركوا المهنة .

هكذا تم إفراغ البلاد من مثقفيها ، وفُتح المجال أمام أولئك الذين صمدوا إما لأنهم يستفيدون من العنف ، أو لأنهم أكثر شجاعة من الآخرين ، أو لأسباب أخرى ، وواضح أن الذين يستفيدون من الإرهاب يشكلون أغلبية المشتغلين في السياسة الآن في الجزائر ، وحتى نكون منصفين فإن جُل العائلات الجزائرية قد طالها الإرهاب ، وهناك عائلات أبيدت بكاملها .

ولكي لاندخل في تفاصيل كثيرة يعرفها القارئ ، وبالتأكيد تابعها في الإعلام المختلفة، نركز في هذه الصفحات على أيام الفزع الخاصة مرد ، وبعائلتى ، وبالطبع فإن ذلك سيكون تعبيراً عن الواقع الجزائرى، مع اختلاف تجارب الأفراد بالطبع ، لكنه اختلاف لا يخرج عن أيام الفزع

التي واجهها ويواجهها إلى الآن كثيرٌ من الجزائريين.

وسواء أطالت أيام الفزع في المستقبل أم قصرت ، فإنها خلال سبع سنوات تقريبا قد كشفت عن قضايا أساسية في حياة الجزائرين منها :

(١) أن الجزائريين أصبحوا يميزون بوضوح بين الإسلام - شريعة ومنهج حياة - وبين النصب والاحتيال باسم الإسلام .

(٢) غاب الحماس الشعبي الذي ساد خلال بداية التعددية ، وحلت بدلاً عنه النظرة الواقعية ، والرهان على حل المشكلات فردية أو أسرية دون انتظار لعمل الأحزاب أو حتى الدولة .

(٣) انهيار ملحوظ في القيم الأخلاقية والعلاقات الاجتماعية نظراً لضغط صندوق النقد الدولي ، وتدميره للطبقة الوسطى .

(٤) زيادة الحب "للوطن" خصوصاً بعد أن رُفض الجزائريون في عدة دول ، ونُظر إليهم جميعًا على أساس أنهم إرهابيون .

(٥) التعايش مع الإرهاب على اعتبار أنه ظاهرة تجتاح العالم كله وستزول مع الأيام ، وهذا أخطر ما نتج عن الفزع .

(٦) زيادة روح الأنانية وحب الذات ، والتي يراها بعض المحللين الاجتماعيين ظاهرة نابعة من الوضع الراهن ، وستختفي بتغير الظروف والمعطيات .

تبقى نقطة أخيرة هي أن بعض الكتّاب قد طلبوا مني - مشكورين - تأجيل كتابة هذه الصفحات حتى ينتهي الإرهاب أو حين يتقدم بي العمر

ليكون ذلك تجربة للأجيال، وبالطبع فإنني أختلف معهم ، لأن التنبيه بخطورة الفزع ضرورة حضارية، ثم إنني أسعى بمثل هذه الكتابات لمحاصرته في البلاد العربية الأخرى حتى لاتتفتّت كل الدول القطرية ولحظتها سيصبح لا وجود لوطن عربي ، ثم إن العمر قد تقدم بنا بالفعل وهو لايقاس بالأيام فقط ، ولكن بدرجة المعاناة .

إن بلداً مثل الجزائر إلى وقت قريب كانت تمثل ثقلاً في الوطن العربي في بوابته الغربية. لكن حين واجهت مصيرها الحالي ، طعنت بآلاف الخناجر في الداخل والخارج ، وانتظرت بعض الحركات والأنظمة في العالم الإسلامي سقوطها، وربما لا يدرون أن ذلك سيكون سقوطا لهم أيضاً، لذلك فإنه علينا تصحيح الصورة ؛ حتى لاتظل ضبابية ، ويظل الاعتقاد سائداً عن أن سلطات الدولة هي المسئولة عما يقع .

لقد اخترنا طريق الديمقراطية على حساب الدولة فكانت النتيجة ما نراه، وقد اختار غيرنا الدولة ورضوا بالاستبداد والديكتاتورية فنجوا ونجت البلاد، ولن تكون الجزائر هي الدولة الديمقراطية الوحيدة في العالم ، ولنقرأ تجربة أمريكا في حربها الأهلية أو تجربة الاتحاد السوفيتي في الوقت الراهن، لنعرف أن ما يقع في الجزائر قليل مقارنة مع التجارب الدموية مع شرية ، غير أننا مع هذا كله نظل نرفض الإرهاب ما دمنا أحياء ، وننتظر م الفزع حتى لو طالت .

والله من وراء القصد

خالد عمر بن ققه

القاهرة في 1998/8/29

الفصل الأول

كوماندوس أفغان في شوارع العاصمة

* كثير من المثقفين أيدوا جبهة الإنقاذ ، فأصبحوا بعد وقت قصير أول ضحاياها .

* "عباسي مدني" يحرف مقولات "ابن خلدون" ، وأتباعه يعتبرون حديثه للصحافة انتصاراً •

* جماهير "اللحظة الزمنية" كانت تتحرك عبر الولايات المختلفة لإظهار قوة الإنقاذ

* "مولود حمروش" - رئيس الحكومة - يحذر ، وقادة الإنقاذ يطلبون من أتباعهم الدفاع عن أنفسهم.

* التعطش إلى الدم ، كان منذ البداية .

* أول عملية عسكرية ، واحساس بالفزع في "الجزائر والمغرب" •

كل شئ تغيير في حياة الجزائريين بمجرد إقرار التعددية واعتماد الأحزاب. فقد أصبح الكلام مباحاً ، والحرية عامة ، ومع الأيام لم يعد في مقدور أحد إيقاف زحف الكلام وزحف الفعل السياسى في مرحلة أولى ، ثم الفعل الاجتماعى بعد ذلك .

وعم الفرح الجزائر لكنه لم يتم لأن اليأس بدأ يتسرب إلى نفوس كثيرين منا ، يأس مبعثه التحول من نظام الحزب الواحد - جبهة التحرير الوطنى - إلى نظام حزب آخر أشد قبضة هو الجبهة الإسلامية للإنقاذ ، التي حاولت منذ ظهورها أن تتحول إلى سلطة حاكمة حتى قبل إجراء الانتخابات بما في ذلك المحلية .

غير أنه رغم الخوف الذي انتاب كثيرين منا ، سواء أولئك الذين يرفضون المشروع الإسلامي ، أو الذين يؤيدونه -ولكلٍ أسبابه ودوافعه- فإن كثيراً من المثقفين كانوا يؤيدون ظهور قوة إسلامية ... إنهم جميع أولئك الذين يؤمنون بالتوجه العربي الإسلامى للجزائر ، وقد كنت أحدهم، والمدهش أن هؤلاء كانوا هم ضحايا الإرهاب بعد ذلك، منهم من قُتل ، ومنهم من ترك مهنته ، ومنهم من هاجر ، وقد كنت من الذين هاجروا

؛ لأسباب سيأتي ذكرها في الفصول اللاحقة .

لاشك أن الذين اغتالتهم جماعات العنف المختلفة - من أصدقائنا وزملائنا في المهنة- قد انتابهم الفزع أياماً وليالي ، وإن كان قليل منهم أُغتيل وهو على اعتقاد أنه غير معني بأحداث العنف لأنه ليس طرفاً في الأزمة ، أما الذين تركوا - المهنة - أو ما يزالون فيها - فإن الرعب لم يتركهم إلى الآن ، كما لم يتركنا نحن الذين هاجرنا ، وإن كان بالطبع بدرجة أقل .

إذن فالفزع ليس قضية خاصة - رغم أن هذا الكتاب يروي جانباً من حياتي الصحفية- ولكن قضية عامة ، بدأت مع الصحافة أولاً من خلال الضغوطات والتخويف من الجبهة الإسلامية للإنقاذ وهي آنذاك في عز مجدها وقوتها، وكانت المجلة التي أعمل صحفياً فيها - مجلة الوحدة - إحدى المؤسسات التي اعتبرت قلعة معادية لها منذ البداية، فقط لأنه تخرّج فيها العديد من الذين يصنعون الرأي العام وسيطر عليها في وقت سابق التيار اليساري ، فجاءت الإنقاذ لتحاسبنا على الماضي .

ففي برنامج تليفزيوني اسمه "لقاء الصحافة" كان يعده ويقدمه الصحفي القدير "مراد شبين" اعتبر الدكتور "عباسي مدني" أن مجلة الوحدة هي مجلة "الوخذة" بمعنى المصيبة - حسب العامية الجزائرية - وذلك رداً على سؤال وجهه إليه مديرها العام "صلاح شيكرو" ، وحين كان عباسي يرد على الصحفي بدا الشرر يتطاير من عينيه ، مع ابتسامة يحاول اظهارها بين الحين والآخر.

وفي نفس الأسبوع اعتبرت صحيفة "المنقذ" - لسان حال الجبهة الإسلامية للإنقاذ - أن الشيخ قد انتصر على الصحافة ٠٠٠" وفي نفس هذا الأسبوع أيضاً كتبت مقالاً منتقداً ما طرحه الدكتور عباسي في معرض حديثه عن العلامة "ابن خلدون" ، ومع أن الدكتور عباسي قريب من مجال تخصصي الذي هو علم الاجتماع - حيث إنه متخصص في التربية ، إلا أن ما ذكره عن ابن خلدون كان مجافياً للحقيقة العلمية والتاريخية .

غير أن مقالي قوبل بموقف سلبي من الكثيرين ، لكونه ينقد الشيخ عباسي ، وهو في نظر بعض أنصاره منزه عن النقد ، كما لامني الأصدقاء عنه ؛ لكونه يعرضني إلى الخطر في المستقبل، ذلك أن بعض الأنباء شاعت في ذلك الوقت مفادها : أن جبهة الإنقاذ تقوم بجمع مقالات كل الصحفيين المنتقدين لها لمحاسبتهم بعد ذلك ، وقد وقع هذا بالفعل بعد ثلاث سنوات ، حيث تم اغتيال العديد من الزملاء.

كنت أعتبر أن مثل هذه الأقوال مجافية للحقيقة ، وتعمل على تشويه صورة الإسلاميين ، لكنني بعدها ومن خلال تجوالي في عدة مناطق داخل الجزائر اكتشفت العداء الذي يُكنُّ للمثقفين ، علماً بأن هؤلاء وفي ظل التعبئة الجماهيرية التي قامت بها الإنقاذ التحقوا بها طوعاً أو كرهاً ، وهناك من كان معادياً لها ولقياداتها ثم وجدناه بعد مدة على رأس قائمة المسئولين الكبار فيها .

والواقع أن المتخصصين الكبار في الشئون الإسلامية - إن جاز التعبير - قد زادوا من خوفنا ، خصوصاً بعد تأكيدهم على أن بعضاً من القضايا التي

تطرحها الإنقاذ مخالفة للشرع ، لكن الغريب أن هذه التعليقات والآراء لم تكن تتجاوز الجلسات السرية ، مما يعني أن المواجهة لم تكن حقيقية ، وربما يعود ذلك إلى كون الجيل الجديد في جبهة الإنقاذ افتك الدين والمكانة من الجيل القديم ، معتبره امتداداً لسلطة ظالمة أو على الأقل مبرراً لجرائمها .

إذن لم يكن في وسع جيلنا اللجوء إلى أي حضن فكري ، لأن كل المشتغلين في الفكر والسياسة كانوا يعيدون ترتيب أوراقهم ومواقعهم ، خصوصاً وأن الإنقاذ اعتمدت على "جمهور اللحظة" ، على غرار تجمعات المساجد ، وبشكل أوسع وذلك باستعراض القوة العددية، فجمهور الإنقاذ كان ينتقل من ولاية إلى أخرى ، وهو نفس الجمهور في كل الولايات ، وهذا جعل الهلع والفزع يدب في الأحزاب الأخرى بما في ذلك الإسلامية، وهذا يعني أنها من البداية حاولت أن تكون لها جمهورها الخاص ، وبالفعل نجحت في تشكيل قاعدة جماهيرية عريضة أخذت شكل الامتداد الأفقي ، إذ استطاعت أن تجعل الطبقات الغنية تلتحم مع الطبقات الفقيرة، وتساهم في رفع الغبن عنها من خلال تلك الأسواق التي أقامتها في عدة ولايات بعد ذلك .

إن الفعل السابق من الإنقاذ - كما يبدو ظاهرياً - فعل سياسي ، لكن في حقيقته توجيه للسياسة والمجتمع ، لأن ما قامت به من تجميع وتوظيف للمحرومين والمسحوقين والحيارى والسكارى وكل المنبوذين في المجتمع ، جعل لأول مرة في الوطن العربي - في حدود علمي - حزباً سياسياً دينياً أصولياً يتبنَّى المطالب الاجتماعية ، وباختصار فإن الإنقاذ سحبت البساط

من تحت أرجل اليسار ، ومن تحت أرجل النظام القائم .

والسلوك السابق في حد ذاته لقى قبولاً جماهيرياً، لكن صُحب بهجمة واسعة على الصحافة ؛ ذلك لأن الإنقاذ ، اعتقدت أن الهجوم خير وسيلة فبدأت حربها ضد جبهة التحرير، ثم الإعلام ، وأنهتها بالرئيس ، وقد انعكس هذا بشكل مباشر على الإدارات والجامعات والمؤسسات الصناعية .

وقد حاولت المؤسسات في الجزائر أن تحمي نفسها من الضغط السياسي للأحزاب من ذلك ما قامت به الجامعات ، حين منعت النشاط السياسى للأحزاب فيها ، بما في ذلك إلقاء محاضرات أو إقامة ندوات من رؤساء الأحزاب . لكن الأحزاب جميعها حاولت دخول الجامعات بطرق مختلفة وملتوية ، ومنها بالطبع الجبهة الإسلامية للإنقاذ ، وزاد هذا في خوف الناس، فقد كنت أستاذاً محاضراً في جامعة العلوم والتكنولوجيا بوهران ، وجاء الدكتور عباسي لإلقاء محاضرة ، ورفض المجلس العلمى للجامعة ، فطرح عباسى الأمر من زاوية أخرى هي : أنه أستاذ جامعي ، وبالتالى لا ينطبق عليه القانون ، ومع ذلك رفضت الجامعة ، وفي النهاية جمع الطلبة خارج أسوار الجامعة وألقى محاضرته، وقد نجم عن ذلك صدام بين الطلبة.

ومنذ ذلك الوقت بدأت أحس بنوع من الخوف لم أكن على الأقل في البداية أعرف أنه بداية الفزع ، ذلك لأن إجبار الناس على القبول بموقفك وبرنامجك الحزبى نوع من الديكتاتورية أيضاً ، وقد أثرت الإنقاذ بمواقفها وأفعالها بشكل سلبى على أتباعها من الشباب ، حتى أننا استدعينا مرة

الملحق الثقافي الإيراني لالقاء محاضرة في الجامعة ، فقام الطلبة المنتمون للإنقاذ بمنعه من إلقاء المحاضرة ، وكان لهم ما يريدون ، وإلا كانت الجامعة ستؤول إلى حال من الفوضى لا مثيل لها . وليتصوّر القارئ تهجم الطلبة على أساتذتهم ، -وقد كنت واحداً منهم - فقط لأن حزبهم لا يقبل بأى عرض لفكر أو نشاط للشيعة في الجامعة .

بعدها بثلاثة شهور فقط ، قمت بزيارة إلى إيران - أثناء حرب الخليج الثانية - وحين عدت ، وبعد أن وضعت الحرب أوزارها نشرت تحقيقاً عن "زواج المتعة في إيران" فثارت الإنقاذ ، وشتمتنى على منابر المساجد ، واعتبرتنى خارجاً عن الدين ، ليس هذا فقط بل إن الشيخ الشاب "على بلحاج" كتب بعد ذلك سلسلة مقالات ضد الشيعة ، ومع ذلك تحمست إيران لنتائج الانتخابات التي فازت فيها الإنقاذ ، المهم أن الهجوم عليَّ ، لم يكن يخصنى وحدى ، ولكن أيضاً مجلتى ، بل إنه شامل لمختلف وسائل الإعلام وبالذات التليفزيون ، الذي اعتبر في نظر قيادات وجماهير الإنقاذ الطرف الآخر المعادي ، والمؤيد للسلطة ، مع أن التليفزيون بالذات، هو الذي ساعد على نجاحها حين كثف تغطيته ومتابعته لكل نشاطاتها وتجمعاتها .

من ناحية أخرى كانت هناك استهانة بيّنه بالإنقاذ ، وعدم إدراك كامل لقدرتها من طرف القوى السياسية ، وإن كانت جبهة التحرير الوطنى تدعى أنها كانت على علم بقوة الإنقاذ ، وذلك حسب ما كشف لي مؤخراً عبد العزيز بلخادم -رئيس البرلمان السابق- ، ولو كان هذا القول صحيحاً لما

تمكنت الإنقـاذ من الفوز ، صـحيح أن هناك اعـتقـاداً في قوتهـا ، وقد تمت معرفته بعد نتائج الانتخابات المحلية يونيو ١٩٩٠ ، **لكن الهزيمة التي وقعت بعـد ذلك في انتخـابات ديسمـبر ١٩٩١ تكشف عن الجـهل الواضح لدى قيادة جبهة التحرير الوطني.**

وقـد كـان بعض رؤسـاء تحـرير صـحف القطاع الـعـام الموالين لرئيس حكومة الإصلاحات - مولود حـمروش - يؤكدون لنا في كل جلساتهم : "**أن الإنقاذ لن تتمكن من الفوز بالأغلبية، وعلى الجميع ألاّ يخافها**" ، ويبدو أنهم كانوا جـادين في أقوالهم تلك، غير أن الواقع أثبت خطأ مـعلوماتهم وحساباتهم ، فـالأجهزة لم تكن في المستوى ، إذ جعلت رئيس الجـمهورية "الشـاذلي بن جديد " نفـسه يقع في خطأ قـاتل ، أبعده عن الرئاسـة ، ودفع بإعادة ترتيـب البيت السيـاسي الجزائري من الداخل ، لكن بتـرتيب مكلف وبالدماء .

وبالرغم من أن حكومـة "مولود حـمـروش" ، قد حـاولت أن تقلل من خطورة الموقف وتقيّـد الإنقاذ - بعد فـوزها في الانتخابات المحليـة - بعدم اعتماد الميـزانيات لها ، إلا أن الإنقاذ أيضاً كانت لها أخطاء سيـاسية قاتلة ، من ذلك : رفض رؤساء البلديات اسـتقبال رئيس الحكومـة لأن هذا الأخير يمثل جبهـة التحرير الوطني . وقد حضرت هـذا بنفسي في إحدى البلديات بالجنوب الجزائري .

وقـد كـان هذا بمثـابة استـعراض للقوة عـلى مستـوى السـلطة والإدارة ، وانعكس ذلك على الشـارع ، تجلى في محاكـمة بعض الشبـاب على جرائم

ارتكبوها مثل جلد شاب في مدينة "باتنه" ، في حين أن متابعة المواطنين على جرائمهم ومحاكمتهم من اختصاص القضاء وكنا نتساءل - آنذاك - عن هدف الإنقاذ من هذه الأعمال ، وكان علينا أن ننتظر سنوات لنعرف الإجابة، التي تجلت في كونها تسعى لتحل كبديل عن السلطة القائمة قبل إج راء الانتخابات ، وبعد فوزها صارت ترى نفسها السلطة الشرعية الوحيدة، وهي الآن تقتل من أجل الاعتراف بها ، طبعاً من خلال الجماعات المسلحة .

والواقع أن الخوف لم يكن عاماً في أوساط المثقفين والصحفيين ؛ أولاً : لانتماءاتهم المختلفة ، وثانياً : لكون الدولة ما تزال قوية ، وثالثاً : لأن العنف لفظي وعلى مستوى الخطاب السياسي ، ولم يصل بعد إلى سلوك إجرامي ، لكنه تحول فجأة إلى خوف عام ، بعد الإضراب السياسي للإنقاذ في يونيو ١٩٩١ ، حين طالبت بإقالة الرئيس "الشاذلي بن جديد".

فقد عايشت هذا الحدث في العاصمة - الجزائر - وقمت بالتغطية الصحفية من موقع الأحداث ، وأنا شاهد عيان ، فالصورة في مجملها ما تزال ماثلة أمامي :

"مسيرات منظمة ، تمنع حركة السيارات ، تقطع بين الحين والآخر ومجموعة منظمة تلبس زياً أفغانياً، طويلة اللحى ، عاصبة الرؤوس ، أصواتها تنطلق من الحناجر مدوية ، استعراض عسكرى ، بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى - وعلى طول الشوارع وقفت النسوة في شرفات المنازل منهن الخائفات ، وكثيرات منهن مزغردات لا يلوين على شئ ، وفي شارع كبير، ووسط تجمع لأنصار الإنقاذ جاءت امرأة سافرة الرأس ، فستانها تحت

الركبة بقليل ، دخلت وسط الجمهور ، فقال أحدهم : دعوها تمر فقد جاءت لتفسد مسيرتنا ، لكن الأنظار صوبت نحوها ، إلا أنها لم تكن مبالية، كانت المسيرة منظمة إلى أبعد حد ، ورجال الشرطة يرقبونها ، هادئة حيناً وتتحول أحياناً أخرى إلى هادرة كموج البحر ، شعور بالأنا الجمعي ، إلا أنه مخيف للآخر ، المتبصر ، وبقاؤها عدة أيام زاد من الإحساس بالخوف لدى كل المواطنين٠٠ . فالتليفزيون يؤكد على أنها فشلت ، والإنقاذ تؤكد أنها نجحت ٠٠٠" .

كانت أيام صعبة ومقلقة لسكان العاصمة ، فالأفواج من البشر تتعاظم كل يوم، وأكوام الزبالة تراكمت حتى فقدت الجزائر البيضاء مظهرها الجمالى ، والناس أُجبروا على غلق متاجرهم ، والذين رفضوا كُسرت أبواب محلاتهم، وغياب تام للسلطة ، ٠٠. لقد كان اعتقاد الرئيس "الشاذلى" أن الإنقاذ لن تستطيع مواصلة الإضراب ، لكنها لم تكن مبالية بالنتائج ، **فقد كان عباسي مدني يضع الأطفال الصغار في مقدمة المسيرات** ؛ حتى لا تواجههم قوات الأمن ، وفي الليلة التي تقرر فيها تدخل قوات الأمن، اتصل رئيس الحكومة مولود حمروش هاتفياً بعباسى مدنى، وطلب منه سحب مناضليه من الأماكن العامة، لكنه رفض ، فأبلغه بأن تدخل قوات الأمن لإنهاء الإضراب سيكون في الصباح الباكر ، وعند الثالثة صباحاً توجه عباسي مدني إلى المتجمهرين وطالبهم بعدم الانسحاب، وأن يدافعوا عن أنفسهم أمام قوات الأمن ، مما نتج عنه سقوط العديد من الضحايا .

وقد شاهدت شريط "فيديو" لعملية التدخل ، وكيف كان مناضلو الإنقاذ يواجهون أسلحة قوات الأمن ، وخصوصاً القنابل المسيلة للدموع ، فأدركت لحظتها أن هناك محاولة تغيير بالقوة لنظام الحكم مهما كانت التكلفة ، والذى حال دون ذلك هو إدراك الإنقاذ أنها ما تزال في موقف أضعف ، وأنها لن تستطيع المواجهة ، وعليها أن تلجأ إلى حرب العصابات إذ لم تتمكن من الوصول إلى الحكم من خلال الانتخابات ، وقد لا يكون هذا شعور كل مناضليها وقادتها، وإنما هو قناعة الذين يقومون بالعمليات الآن ، حتى أن بعض القريبين من الإنقاذ يذهبون إلى التأكيد : على أن **إلغاء نتائج الانتخابات كان لصالح الجناح المتطرف داخل جبهة الإنقاذ ، الذي اختار العمل العسكري بعد ذلك .**

هكذا إذن بدأت تتطور مسألة الفزع لدى المواطنين بعد أن فقد البعض أبناءهم ضحية مطامح سياسية - مشروعة أو غير مشروعة - وبالطبع كنت من الذين مسّهم الفزع، لكنه لم يتم بشكل مباشر لأن معظم الصحافيين كانوا يعتبرون أنفسهم مجرد ملاحظين ، لكن ما كشفت عنه بعض المصادر المطلعة بعد ذلك بسنوات ، تجعلنا نكتشف عدم وعينا بما كان يحدث في تلك الفترة ، ربما لدخول بلادنا مرحلة جديدة ، وربما لكوننا لا نملك خلفيات الماضي عن العداء بين التيارات والقيادات السياسية ، فقد أبلغنى "أحمد مراني" - أحد الأعضاء المؤسسين للجبهة الإسلامية للإنقاذ - أن عباسى مدنى رد على الشرطة حين طالبت جماهير الإنقاذ بالسير على الرصيف :

"دعوهم حتى يسيل الدم ويسقط ضحايا ، ويسمع كل العالم أن هناك

دماء سالت في الجزائر" .

والواقع أن "أحمد مراني" ، الذي استقال من الإنقاذ وحذّر من خطورة عباسي مدني ، ثم أصبح مستشاراً لدى رئيس الحكومة ، فوزيراً للشئون الدينية ، وأخيراً اختير عضواً في مجلس الأمة ، كان يعي ما يقول ، لكن معظم الناس لم تصدقه لحظتها ، بما في ذلك الصحافيين ، لأننا اعتبرناه - آنذاك - مؤيداً للسلطة ، ناهيك عن أن التيار الإسلامى لا يعتبره شخصية لها ماضٍ قديم داخل الحركة ، المهم أن تصريحاته تلك كانت أشارت إلى بداية من الفزع العام ، وبعدها بمدة وجيزة ، تأكدت صحة أفكاره، وعم الفزع قبل إجراء الانتخابات البرلمانية بأيام قليلة .

كان المفروض أن نفزع منذ ١٩٨٤ ، أي منذ ظهور "مصطفي بويعلى" ، لكن اعتقادنا بعداء الرجل للسلطة وليس للشعب حال دون وعينا بخطورة العنف ، وفي مرحلة لاحقة ، حين أسّس شيوخ الإنقاذ حزبهم، ولدت فكرته عند زيارتهم لعائلة "مصطفي بويعلى" ، كان علينا أن ننظر للأمر من زاوية تأسيس العمل السياسى على القوة ، ومع ذلك فإننا لم نهتم بل إن معظمنا دافع على قانون الأحزاب الذي سمح باعتماد أحزاب إسلامية .

وبالرغم من أن جميع المؤشرات والمعطيات والأفعال كانت تؤكد على بداية ظهور الفزع في حياتنا جميعاً ، سواء عند اصطناع مشكلات مع الصحافة ، أو عند معاقبة المواطنين ، أو حتى عند قيادة المسيرات لإسقاط الرئيس ، وهي جميعها عمليات تصعيد مقصودة بررت ما وقع بعد ذلك ، قلت رغم هذا إلا أن الاختلاف في وجهات النظر والاهتمام بالشكل

الظاهرى للممارسة الديمقراطية، والغفلة، جميعها عوامل حالت دون ادراكنا لخطورة الوضع وما ستسفر عنه الأيام ، وكان لابد من هزة كبيرة تطيح بقناعاتنا وتجعلنا نعيد اكتشاف أنفسنا ، وعلاقاتنا ، ومستقبلنا السياسي، وكانت هذه الهزة هي : حادثة ثكنة "قمار" التي وقعت في ٨ نوفمبر ١٩٩١، أى قبل الانتخابات بمدة قليلة ، لأن هذه الأخيرة أجريت في ٢٦ ديسمبر ١٩٩٢ .

لست أدرى لماذا تأثرت بهذه العملية كثيراً دون غيرها . سواء تلك التي سبقتها ، أو تلك التي جاءت بعدها ؟ طبعاً باستثناء العمليات ذات الصلة المباشرة بى وبأقاربى وكذلك المجازر الكثيرة التي تتابعت لاحقاً ، وفي أحيان كثيرة أرى أن الإجابة تكمن في أنها أول عملية عسكرية أثناء الممارسة الديمقراطية ، فقد كانت سابقة عن إجراء الانتخابات ، وربما أن الذين كانوا وراءها سعووا من خلالها إلى منع إجراء الانتخابات، إضافة إلى ذلك فإن هذه العملية . وقعت في نفس الولاية التي أسكنها ، وهى ولاية الوادى - جنوب شرقي الجزائر - منطقة صحراوية مسالمة ، وربما لأسباب أخرى كثيرة أجهلها لكن أحس بها ، يتداخل فيها الإحساس بأهمية الأمان بسلامة الوطن ، وسعادة الحاضر - في ذلك الوقت - بالخوف من المستقبل .

على العموم فقد سمعت خبر الاعتداء وأنا في مدينة "وجدة" بالأراضى المغربية ، وقد أثر الخبر على مسمع أسرة مغربية كانت تستضيفنى رفقة الحاج "المنور" بعد لقاء لنا مع محمد بوضياف قبل عودته رئيساً للدولة في

١٦ يناير ١٩٩٢ .

ففي ذلك البيت المغربي أدركت معنى الشعور العربي العام ، فقد كانت مضيفتنا متأثرة جداً ، ولم تبلغنا بالخبر إلا بعد أن أحسنت ضيافتنا ، وأنهينا عشاءنا ، كانت حزينة مثلنا ، محتارة مثلنا ، وخائفة مثلنا ، بالرغم من أنها كانت بعيدة عن تلك الأجواء ، غير أنها حاولت التخفيف عنا ، وطالبتنا بالمبيت فرفضنا وقررنا السفر .

خبر الحادث هو أول تعامل لي مع الفزع على المستوى الشخصي ، ويعود ذلك لفزع مرافقي ، ذلك الرجل الذي اشتعل رأسه شيباً ، إذ حسم الأمر من البداية ، واعتبره بداية العمل المسلح في الجزائر، ووضع احتمالات ثلاث ، **أولها** : يحتمل أن تكون هذه الجماعة الإرهابية تابعة لدولة خارجية ، **وثانيها** : أنها واحدة من عدة مجموعات إرهابية موزعة على التراب الوطني ، **وثالثها** : وهو الأخطر – في نظره – أنها مجموعة عسكرية انفصلت عن الأحزاب الإسلامية لتبدأ مسلسل واسع لأعمال العنف في الجزائر .

كان صديقي – وهو يحدثني – يعيش حالاً من الفزع ، ومع كثرة التحليل وسرد تجربته التاريخية تأثرت كثيراً ، وما كنت أعرف أن تلك الساعات من الفزع ستكون بداية لدخولي عالم القلق ، وأنها ستتراكم مع الزمن وستجعلني خلال ست سنوات يتقدم بي العمر مثل كل جيلي أربعين سنة ، وكنت أحسب أنه مجرد كابوس مزعج ، لكنه لن يطول ، لكنه لم يكن كما تمنيت ، فقد سالت الدماء نتيجة للفوضى التي حلت باسم

الديمقراطية ، وما نزال نعيشها، لهذا أقول وبناء على أولى لحظات الفزع :

"إننا كثيراً ما نتصور أنفسنا خارج المشهد المأساوي ، ورغم حب الوطن، فإنه لن يؤثر فينا بنفس درجة شموليته لنا ، لكننا مع الوقت نجد أنفسنا جزءاً أساسياً منه وفيه ، لحظتها لا تبقى لنا إلا الكتابة وهذه أيضاً حرم منها أصدقاء كثيرون، كانوا يدافعون عن قضايا الوطن والتاريخ والحرية . أصدقاء شكلوا باغتيالهم أو غيابهم فراغاً حقيقياً لي - تطاردني صورهم وأفكارهم ، وأنا أرى في نفس الوقت المجرمين يعيشون على دمائهم ، ولا ندري على من سيكون الدور منا ؟!"

إن ما عايشته منذ البداية أيام فزع طويلة ، لا لأن الاغتيال شامل فقط ولكن لكونه - الآن - يأتي على طول أيام مُرة حزينة ، يرافقنا ، وحين نرحل خارج أوطاننا يظل يطاردنا ، ولهذا كلما سمعت باغتيال شخص زاد الفزع عندي ، وتغيّر طعم الحياة لديّ ، وربما حتى لون الدماء في عروقي .. إنها الدماء الجزائرية التي تسيل لكن تظل الأرض عطشانة ، وتسقى بها أنفساً مريضة ، تصورت أنها بإحلال الرعب تحكم المجتمع، فقدت إنسانيتها وتحاول جاهلة أن تُفقدَ الدين قيمته ... وقد استطاعت في وقت سابق أن تزيف وعي الناس ، وكنت من الذين حاولوا مواجهة هذا الزيف ، حين انتقل الفزع عندي إلى مرحلة أخرى واغتال الإرهابيون أحد أقاربي .. وهو ما ستراه في الفصل القادم.

***

الفصل الثاني

الفزع من القصبة إلى عنابة

* اغتيال "ابن عمي" : المفاجأة المرة .
* ترويج شائعات اغتيال آلاف من الشرطة تحول إلى حقيقة .
* مسئولون جزائريون في السر يعلنون عداءهم للإنقاذ وفي العلن يبعثون لها ببرقيات التأييد .
* الاعتقاد بأن السلطة وراء الاغتيالات وسّع في مساحة الكراهية
* الاعتقالات أظهرت تصفية الحسابات بين التيارات .
* باغتيال الرئيس بدأ الخوف على الوطن .

تحـدثت فـي الفـصل الأول عن بداية الـفـزع منذ أن ظهــرت الإنقـاذ ، وبدأت في حـربهـا مع الإعـلام ، وسـردت بعـض لحظات الفـزع الأولى ، سـواء عند ظهور جـزائريين في لبـاس المجـاهدين الأفـغان ، أو عند دعـوة الأنصار إلى مقاومة رجال الأمن ، وانتهينا إلى التـأثير المباشر لعملية "قمار" على حياة الكاتب ، وقد كان وقوع العملية أثناء وجوده في المغرب"!

وفي هذ الفصل نواصل لحظات الفزع ، التي تطورت من عمـوميتها مع الصحافة والسلطة إلى حرب جديدة ضد رجال الأمن والشرطة ، بعد نتائج الانتـخابات وترويج الشـائعات على أن هذه حـرب مقـدسة . لأنهـا تعـيد للشعب حقه في الاخـتيار وقد انطلت هذه الحيلة الكبرى عـن كثيرين منا ، وكنت أحـد ضـحـاياها ، وفي أول العـمليـات فقـدت عـزيزا عليّ، كـان شرطيـاً، وليس له علاقـة بما يحدث على الاطلاق ، وكـانـت تلك هي بداية دخول الفزع لكل بيت جزائري .

عدت مـساء ذلك اليـوم إلى البيت -كـعادتي - في عـين فكرون (تقع على بعد ٥٠كم من عـاصمة الشرق الجـزئرى قسنطينة) منهار القـوى بعد يوم شاق ، ذلك لأنني كنت أتابع بنـفسى طباعة العـدد الجديد من صحيـفة

"العهد" التي كنت رئيس تحريرها ، وهي في بداياتها ، خصوصا وأنها نشرت في ذلك العدد الحلقة الثانية من حواري مع بوضياف ،وقد تأخرت الطباعة في ذلك اليوم .

حاولت أن أتجاوز لحظات الإرهاق ، وأنا أحس بسرقة عمري من خلال العمل الصحفي ، وبعد حديث قصير مع زوجتي وابنتيّ "الشيماء وميسون" أسرعت إلى تشغيل جهاز التليفزيون لسماع أخبار "نشرة الثامنة" التي كانت قد بدأت منذ دقائق ، وفوجئت على الشاشة بعمي "صالح" - الذي يسكن العاصمة يصلي في جنازة مهيبة مع عدد من المسئولين، ولم يخطر على بالي أنه يصلي على جثمان ابنه "محمد" ورفاقه .

حاولت الاتصال هاتفيا بالعاصمة لمعرفة ما حدث ، فلم أوفق واتصلت بأقاربي في مدينة "تقرت" بالجنوب الجزائرى وعلمت أن ابن عمي "محمد" قد قتل في كمين وضعه الارهابيون في القصبة ، ولطالما عرفَتْ تلك البقعة داخل العاصمة العديد من العمليات في عقود زمنية ماضية لكنها كانت في أغلبها بين الجزائريين وأعدائهم ، لكن ماحدث في ذلك اليوم ، كان بشعاً بالنسبة لي ، لا لكونه أخذ مني قريبي - الذي كنت أراهن على نشاطه - فحسب ولكن لكون القتل بدأ ضد رجال الشرطة والأمن ، أي أن تلك العملية وماتبعها ، كان هدفها إحلال الفوضى ، وإنهاء حالة الأمان والاستقرار .

والواقع أنه قبل هذه العملية ومنذ تعليق الانتخابات ثم إلغائها ، بدأت تروّج في الساحة شائعات مفادها أن عدد القتلى سيكون بالآلاف من رجال

الشرطة والدرك والجيش . ولم يكن معظمنا يصدق ما يقال ، معتبرين أن ذلك مجرد تهديد للسلطات حتى لاتقوم بحل الجبهة الإسلامية للإنقاذ ، وبعضنا حاول منذ البداية أن يحدد مبررات لأعمال العنف المحتملة الحدوث ما دامت السلطات قد ألغت الانتخابات ، لكن أكثريتنا كانت مع إعادة حق الإنقاذ في الحكم شريطة ألاّ يكون ذلك بالقتل والدماء .

لقد كانت لحظات اختيار صعبة بين وصول الإنقاذ إلى الحكم وبين إبعادها ، خصوصاً بعد تحرك قوى سياسية مختلفة معظمها يسارية وهو مايعرف بلجنة إنقاذ الجزائر ، وقد فشل العقل الجزائرى الحاكم والمعارض في إيجاد حل للمأزق الذي تسبب في إزهاق أرواح عشرات الآلاف بعد ذلك .

ومع أنني ترشحت في الانتخابات التشريعية ، منافساً للإنقاذ وغيرها من الأحزاب الأخرى ، إلا أننى كنت مؤيداً لنجاحها مادمت قد عايشت بنفسي - في واحات الجنوب الجزائرى وفي الأرياف والقرى - التأييد التلقائي والعفوي للجبهة الإسلامية رغم الشروط التي وضعت ، وكنت أرى - مثل كثيرين غيري - أن الديمقراطية في بلادنا يجب أن تدعم بمواقف صارمة ، ومعترفة بالنتائج ، وقد سارت كثير من الصحف على هذا المنطق، وبعد ثلاث سنوات اكتشفت أن الإنقاذ في وادي . وهي في وادي آخر .

وعلى خلاف التجارب العربية الأخرى ، فقد اختار الجزائريون الديمقراطية - رفضا أو قبولا - على حساب الدولة وكانت النتيجة

ما نعيشه الآن ، وإذا كان المثقفون يقومون بذلك وهم واعون لدورهم ، فإن العامة كانت تؤيد الإنقاذ ، التي تمتعت بمكانة خاصة لدى الشعب ، بعد خطابها السياسي العنيف ، وأيضاً بعد معارضتها الحقيقية لنظام الحكم، مطالبة برحيل رئيس الجمهورية .

بجانب هذا فقد كان هناك فريق من رجال السلطة - الذين عايشوا كل عهود الحكم ، وأكلوا على كل الموائد - يحاولون اللحاق بالركب قبل أن يفوتهم ، ولهذا أسرع بعضهم لتغيير خطابه وإعلان تأييده للنتائج ، وكانوا في جلسات سرية معنا يعلنون عداءهم الظاهر وفي الخفاء يسارعون إلى إرسال برقية تأييد للجبهة الإسلامية للإنقاذ .

المدهش حقاً ، أن الذين اعلنوا تأييدها ، وضرورة احترام اختيار الشعب، سارعوا إلى تأييد بوضياف بعد عودته ، ودخلوا جماعات وفرادى في "التجمع الوطني" الذي أنشأه قبل اغتياله بأيام ثم التحقوا بحزب "التجمع الوطني الديمقراطي" ، وآخرون منهم صاروا أعضاء في المجلس الشعبي الوطني وفي مجلس الأمة .

إذن فمن البداية لم يكن السياسيون على موقف ثابت واحد، وذلك عكس الكتاب والصحفيين الذين ذهب بعضهم إلى تأييد النتائج - أو رفض إلغائها وتوقيف المسار الديمقراطي ، وهكذا بدأت الأسر الجزائرية تحدد موقفها ، وبعضها دخل في حرب مباشرة مع السلطة ، وتم الترويج للأسلوب الذي أعلنته الإنقاذ ، وهو : قتل آلاف الشرطة ورجال الأمن وكانت أول عملية ضد الشرطة -كما ذكرت آنفا - تلك التي ذهب

ضحيتها ابن عمي ورفاقه .

بعد سنة من التحاقه بالشرطة ، وبعد تدريب متواصل ، وهو باكورة أبيه، تمكن "محمد" من نيل ثقة مرؤوسيه ، وكسب محبة أصدقائه ، وقد كان منذ طفولته على هذا النحو ، ولحظة اغتياله لم يتجاوز عمره ٢١ سنة ، كان في عمر الورد ، وكذلك رفاقه ، ولم يكن يعتقد إطلاقا في صبيحة ذلك اليوم أنه ذاهب ولن يعود أبداً •. لقد خرج بهمة ونشاط كعادته ، ولكن الذين قرروا الانتقام من السلطة -من خلال الشرطة - لم يكونوا بكل تأكيد يعرفون أصوله الأسرية ، وتوجهاته أو توجهات عائلته .

كان أبوه رجلا عاملا في شركة للقطاع العام ، وملتزما بدينه ، حاجا بيت الله الحرام، وكذلك أمه ، والأكثر من هذا أن والده ينتمي إلى الجبهة الإسلامية للإنقاذ وينشط على مستوى قاعدي من خلالها، ولصالحها ، وكان مؤيداً للمشروع الإسلامي، ولطالما تناقشنا واختلفنا ، ولكن كل منا كان يحترم الأخر - مع ميل عائلتنا بنسب مختلفة - للتيار الديني ، وربما كان اختلافنا بسبب المستوى الثقافي ، وأيضا بسبب القناعات والمواقف الخاصة بكل منا ، ومع هذه الخلافات إلا أن محمدا - رحمه الله - كان هو نقطة الجمع بيننا ، ربما لأنني أحد أقاربه من جهة "أبيه" الذي أحبه بصدق وتمنى أن يراه رجلا ناجحا ، وقد سعدت كثيراً بالتحاقه بالشرطة ؛ لقناعتي بنشاطه من جهة ، ولضرورة وجود أبناء العائلة في عدة مواقع داخل مؤسسات الدولة من جهة ثانية .

لقد كان اغتيال "محمد " ضربة قاضية بالنسبة لي ، ومع أنني أثناء

وصولي في اليوم الثاني للعزاء - رفقـة زوجتي الكاتبة "شهر زاد العربي" - أظهرت صبرا خصوصـاً بعد أن وجدت عـمي وزوجته زهراء أكثـر أفراد عائلتنا صبرا ، لكن هذا كان ظاهريا لأن أمـه لاتفارقهـا صورته إلى الآن، وذلك شـعور طبيـعي بالنسبة لأم فـقدت ابـنها البكر ، كـبـاقي الأمهـات الجـزائريات اللائي فـقدن أبنـائهن على طول سنوات الأزمـة المسـتمـرة في الجزائر .

كان حـزني عليه أيضا لكونه الشـاهد الوحيد من أقـاربي - وكان آنذاك عمره حوالي عشرة سنوات - على ميـلاد حبي الحقيقي - وهو أكثر أقاربي قربا من زوجتي لأنها تـعرفت عليه وتعرف عليها أيام الشـعور بالسعادة في عمـر الجزائر . وكان حين يكلمـه أحد عني بخصـوص الزواج - يقول له : "لقد اختار عـمي زوجته ، وستعرفـونها مع الأيام" وهو في ذلك السن كان مكمَن سرِّي ، ربما لإحساسي بقربه مني ، وربما لشعور داخلي لم أدركه هو أنه : لن يعمر طويلا .

لقد جاء اغتياله في ظل سيـاق عام لأعمال العنف ، حيث بدأت جموع الإنقـاذ وقيـاداتها تقـوم بالمظاهرات كل يوم "جـمعـه" في المساجـد ، ومن المدهش أن السماء في تـلك الايام من شهرى يناير وفبراير كـانت حزينة مما يحدث إذ كانت تعـمها سحب داكنة السواد ، وربما يكون ذلك تفـسيرى لما يحدث أو مجرد شعور داخلي - وإن كان هذا الاحـساس قد انتاب كثيرين غـيري ، المهم أن الاغـتيـالات بدأت برد السلطة على عنف الإنقـاذ ، وهذه الأخيرة اعتبـرت حرمانها من فوزها جريمة يعـاقب عليها بالقتل ، وبالطبع

قتل الذين يَـحولون في نظرها بين الطاغـوت - الاسم الذي أطلقتـه الإنقاذ وجمـهورها على كل المسئولين وقيادات الجيـش - وبينهم ، ولذلك قامت باغتيال الشرطة ورجال الأمن وكل العـاملين في الأجهزة التي تتولى الدفاع عن الوطن.

من ناحية أخـرى فقد تزامنت عمليـات الاغتيال بالتـرويج إلى أن بعضا من رجال الامـن متحـالفون مع الجـماعـات ، وأن هناك اختـراقا للأجـهزة الأمنية ، بل والأكثر من هذا أن مايحدث من قـتل للشرطة هو مجرد تصفية حسابات بين قياداتها ، صـحيح أن هذا حدث ، وكشف عن انتـماء بعض رجال الشرطة فـي العاصمة وغيـرها للجماعات المسلحـة ، ولكن هذا جاء بعد ذلك بثلاث سنوات على الأقل ، ولم يكن في بداية أعمال العنف .

يلاحظ أن تلك الشـائعـات ، وجـدت اذانا صـاغـيـة لدى كـثيـر من الجـزائريين ، وقد انتـابنى حزن شـديد وأنا أسـمع أم محـمد - ابن عـمي المغتـال - تؤكد على أن الذين اغتـالوا ابنها من الحكومـة ، ليس هذا فقط، بل إنه بعـد سنوات من اغـتـيـاله لاتزال على قناعـة بأن الذين اغـتـالوه من السلطة وهذه مشكلة كـبيرة يواجهـها الجزائريون ، فهم قـد تعودوا تكذيب السلطات في كل ماتقـول حتى لو كانت صـادقة ، وقد نتج عن هذا غـياب تام للثقة بين الحكام والمحكومـين ، والمحاولات التي تبذل الآن لن تحقق أية نتائج ما لـم تصحب بتغييرات فعلية في حياة المواطنين .

وعلى صعيـد الشائعات دائما فإن ظهـور الجماعات الإسلامـية المسلحة المتأخر مقارنة مع ظهور الجيش الإسـلامى للإنقاذ جعل كثيرا من الجزائريين

يؤكدون على أن هذ الجماعة صنيعة النظام ، أوجدها من أجل محاربة جيش الإنقاذ ، واذا سلمنا بهذه الأقوال ، فإن هناك سؤالا يفرض نفسه هو: مادام الامر على النحو السابق ، فلماذا لم تتمكن السلطة من توقيف العنف بعد إجراء الانتخابات وفشل المعارضة ؟ الإجابة عند البعض نجدها على النحوالتالي : " **إن الجماعة بعدها صارت قوية ، تمردت على السلطة نفسها، ويصعب الآن التحكم فيها** ".

مثل هذه الأقوال وغيرها نجدها ضمن خطاب عام يهدف إلى تحضير المجتمع نفسيا للقبول بالعنف بعد ذلك ، وقد ساهمت كل القوى السياسية والمثقفين في المطالبة بعدم تدخل الجيش، لأن تدخله في تلك المعركة - في نظر كثيرين منا - يعد حربا مباشرة مع الشعب ، ولايوجد جيش في العالم انتصر في حربه ضد شعبه، صحيح أنه يتمكن من قمعه لحين من الوقت ، لكن التغيير يظل قائما لامحالة ، ومع ذلك كله يتهم الجيش بأنه من وراء أعمال العنف ، وقد اضطر للدخول في مواجهة فعلية ضد الجماعات المسلحة في نهاية ١٩٩٤ ، وذلك بعد إعلان وزير الدفاع الجنرال اليامين زروال : " أن الجيش يعطى مهلة أربعة أشهر للسياسيين لحل الأزمة ، وإلا سيتدخل بشكل مباشر" وأنتهت المدة ، ووجد الجيش نفسه في مواجهة فعلية بعد فشل السياسيين .

إن الفزع الذي داهمني باغتيال قربيى ، لاشك أنه انتاب غيرى سواء أولئك الذين كانوا مناضلين في الإنقاذ ، أو الذين كان أقاربهم من الشرطة، غير أن الفزع لم يتوقف عند حد التأثير على بعض الأفراد والعائلات وإنما

أخذ طابعا شموليا ، بعد قرار الرئيس بوضياف المتمثل في إقامة المعتقلات ، حيث سجن خمسة آلاف مواطن لم يكونوا جميعهم من جماهير وأنصار الإنقاذ ، وبدت في تلك الاعتقالات تصفية حسابات مع أغلبية أصحاب التوجه العربي - الإسلامي ، وقد يكون هذا دون علم بوضياف لكن تلك المعتقلات كانت هي سبب كراهيته من طرف الشعب

وبغض النظر عن مدى قبول أو رفض تلك المعتقلات من الأحزاب والسياسيين والشعب، إلا أنها وسعت الهوة بين السلطة والشعب ، ولكثرة القلق دخلنا في حرب إعلامية ، من ذلك الموقف الصريح والعلني لجريدة "العهد" من خلال مقال كتبه مديرها العام "محمد سعدى " تحت عنوان : "لا يا بوضياف" ولم يكن هذا المقال خاصا بالمعتقلات فحسب ، وإنما جاء ردا على أفعال بوضياف جميعها ، علما بأن هذه الجريدة نفسها كانت من المرحبين بعودته ، وقد مُنع العدد من الصدور ، لكن بتدخل قائد الناحية العسكرية "بقسنطينة" سمح بطباعته ، في وقت منعت صحف أخرى من الصدور .

وهذا القلق الذي انتابنا على مستوى جريدة "العهد" كان رد فعل طبيعي لعلاقتي الشخصية بكثير من الذين اعتقلوا . لقد كانوا أساتذة جامعات وصحيفيين ومديرين واداريين ، وغيرهم من الذين يؤثرون بشكل مباشر في الحياة العامة ، وقد صُحب اعتقالهم بردود أفعال على مستوى كل القطاعات ، لكن لم يدخل المواطنون في مواجهة مع السلطة لسببين ، **أولهما** : لكون المواجهة بدأت قبل ذلك بالفعل وأن السلطات كانت تقوم

برد فعل ، **وثانيهما** : تداخل الأفعال والمواقف ، وإدراك البعض أن قوى سياسية بعينها تريد جر التيارين الوطنى والإسلامى إلى حرب مع السلطة .

ولم يكن في مقدور الصحفيين القبول بهذا الوضع ، وهكذا بدأت بعض الأقلام تنتقد علانية سياسة بوضياف والفريق الذي يعمل معه ، من ذلك ما كتبه الصحفي القدير "سعد بوعقبه" في صحيفة "الشروق العربى" منتقداً بشكل غير مباشر الحكومة ، وموضحا الأفكار التي يحاول بعض المسئولين تمريرها ،وهى بالطبع معادية للتوجه الوطنى ، وكانت صحيفة "الشروق" آنذاك أكثرالصحف توزيعا ، وسبق لى أن التقيت بصاحبها ومديرها "علي فضيل" وعرض عليّ الالتحاق بمؤسسته كرئيس تحرير ووعدته بالتفكير .

لم تمر إلا أياما قليلة عن هذا اللقاء ، حتى فوجئت ذات مساء في نشرة أخبار التليفزيون بخبر اعتقال مدير جريدة الشروق ومستشارها سعد بو عقبة ، فاتصلت"برشيد فضيل" سكرتير التحرير آنذاك وأخو المدير العام، فالتمس مني الالتحاق بالمؤسسة قبل أن تغلق السلطات الجريدة ، وكان له ذلك ، وأثناء وجودي في العاصمة بينت لي الحملة - التي قام بها المحامون لصالح الجريدة والمكالمات الهاتفية والرسائل التي وصلتنا من القراء - مدى التفاف الناس حول هذا العنوان ، ومدى خوفهم على الديمقراطية الناشئة في بلادنا .

بذلت مساعٍ كبيرة للتأثير من خلال الرأى العام في قرار السلطة ، وبالطبع التأثير بشكل غير مباشر على القضاء في تحويل القضية من مسألة

خاصة باعتقال صحفيين إلى قضية رأى عام ، وذلك من خلال الاتصال بعض المسئولين العسكريين ، وقد اكتشفت تأييد بعض الضباط لسياسة الجريدة وخطها العام ، وذهب بعضهم إلى التصريح - أنه حتى في حالة الخطأ - من طرف الصحفيين فإن الحكم الأول الصادر ضدها بعقوبة السجن ثلاثة شهور نافذة ظالما .

وخلال شهر بذلت السلطات محاولات غير مباشرة لمنع صدور الجريدة أو غلق مقرها ، وفي النهاية صدر حكم ببراءة الصحفيين في الاستئناف ، ولكن قبل صدور الحكم وجدت نفسي أبذل مساعٍ جديدة من أجل تدخل بعض الضباط ، وقد حدد لى موعداً مع إحدى الشخصيات الهامة المؤثرة - رفض ذكر اسمه - لمناقشة كيفية تدعيم الزميلين المسجونين ، وما إن وصلت إلى باب المحكمة العسكرية في "البليدة" ، حتى وجدت حراس الأمن يمنعوننى من الدخول، وإلغاء الموعد ، وحين سألت عن السبب : أبدوا دهشتهم لعدم معرفتى بالخبر ، "خبر اغتيال بوضياف" .

كان اغتيال بوضياف في الساعة الحادية عشر وخمسة وثلاثين دقيقة صباحا ، وفي ذلك الوقت كنت متجها من العاصمة إلى البليدة (تبعد عن العاصمة ٤٠ كم) بل إننى خرجت من مقرالجريدة على الساعة العاشرة لوجود التزامات أخرى ، وقد كنت على علم بزيارته صبيحة ذلك اليوم إلى مدينة عنابه ، وأدركت بعد سماع الخبر كم أن العمل الصحفي شاق ويتطلب متابعة مستمرة قد لاتتوفر لنا دائما .. إنها ساعات عمل متواصلة قاتلة ، والخطأ فيها مكلف مثل العمليات الجراحية تماما .

وعلى طول الطرق كنت أفكر في الوضع الذي ستؤول إليه البلاد ، وقد بدت الصورة آنذاك قاتمة ، وفي تلك اللحظة لم يكن يهمني معرفة القاتل ، وإنما الذي شغلني اتساع مساحة العنف ، لقد بدأت العمليات منذ عودة بوضياف ، وتركزت اغلبيتها ضد الشرطة ، وفقدت فيها - كما ذكرت سابقا - ابن عمي ، وها هي عمليات الاغتيال تتواصل لتنهي حياة الرئيس نفسه .

لقد تحولت حالة الفزع من الخوف على النفس والأقارب الى الخوف على الوطن ، وإذا كان من السهل حماية النفس بتغيير المكان ، فإن حماية الوطن ليست بنفس السهولة، لأنه من الصعب تغييره ، صحيح أن الفزع على حياة الإنسان صعب ومخيف ، لكنه - في نظري - لايساوي الفزع من أجل الوطن، لأن الإنسان بلا وطن، بلا وجود ، وبلا تاريخ ينتمي إليه.. هذه حالة أخرى انتابتني ، ومع ذلك فقد حاولت أن أنساها مع الأيام ، لكن ما حدث بعد ذلك جعلني أجمع بين الفزع على النفس وعلى الوطن ، وتلك مأساة نجا منها من نجا إلى حين ، وهلك من هلك على غير بينة ، لكن الفزع ما يزال يطاردننا .

***

الفصل الثالث

صحفيون في طوابير الاغتيال

* "عبد السلام بلعيد" يعتبر الكتابات الإسلامية إمداداً ثقافياً للأصولية .
* بسبب كتابي "الجهاد والثورة" صرت متابعاً امنياً
* اغتيال "طاهر جاووت" أرجعه البعض لترجمته كتاب سلمان رشدي "آيات شيطانية "
* الصحفيون بين سندان الجماعات ومطرقة الحكومة .
* إرهابي - شاب - يحملني زَرْع بذور التطرف.
* الجماعات الإرهابية تضع الصحفيين في سلة واحدة .

تناول الفصل السابق الحرب التي شنها الإسلاميون ضد رجال الشرطة والأمن، وترويج الشائعات من أجل استرجاع الحق المنهوب، وقد بدأناه بالحديث عن أول كمين للشرطة "بحي القصبة" وأنهيناه بلحظة اغتيال الرئيس بوضياف، حيث انتقل الفزع من مجرد قضية خاصة بالأفراد والجماعات إلى قضية عامة تهدد بإنهيار بناء الدولة .

وفي هذا الفصل نواصل سرد تفاصيل لحظات الفزع مركزين على زملاء المهنة الذي اغتالتهم قوى الإجرام، فقط لأنهم يحملون أقلاماً وأغلبيتهم لم تكن منتمية لأي فريق، وقليل من الضحايا ساعد هذا الفريق على حساب ذاك، لكن مهما كانت مواقف الصحفيين، فإنهم ما كانوا ليغتالوا لو لا أن تلك الجماعات ضد العلم والنور وضد كشف الحقائق وهنا تكمن خطورة الصحفيين .

الاغتيالات بدأت قبل إجراء الإنتخابات بشهرين، بشكل مفاجئ، وتوسعت مساحتها بعد توقيف المسار الديمقراطي، حين أصبح العنف مشتركا بين السلطة وأحزاب المعارضة، ولم يكن قتل الأفراد من هنا وهناك هو القضية الأساسية للقائمين بتلك الأعمال، وإنما الهدف كان إيجاد حالاً

من الرعب الجماعي، وتحضير المجتمع كله إلى حرب شاملة، وهي ما كنا نطلق عليه آنذاك حرب الدوائر، أي أن اغتيال أي رجل من الأمن يصيب الأجهزة الأمنية بخسارة، وليس شرطا أن يكون المغتال موافقا على سلوك الدولة، بدليل أن بعض رجال الشرطة اغتيل وهو يؤدي صلاته في المسجد، وبالمقابل استعمال القوة مع أي كان من الأصولين بغض النظر عن مشاركته في العنف من عدمها .

ولم نكن نحن الصحفيين معنيون بالاغتيال على الأقل -في نظرنا- آنذاك، ولا أدري لماذا لم نتنبه إلى أن اغتيال الخبراء في الاستراتيچية مثل جيلالي اليابس والأطباء ونخبة مختارة من المثقفين سيجعلنا في مواجهة الرصاص مادمنا نحسب ضمن جماعة المثقفين، الذي لم يساعدوا طبقاتهم الإجتماعية على النهوض والخروج من التخلف ؟

كانت الأحداث تمر سريعة . وباغتيال بوضياف، وتعيين حكومة "عبد السلام بلعيد"، وتعيين "علي كافي" رئيساً للمجلس الأعلى للدولة، تغير الخطاب السياسي للسلطة، وصرنا نحاسَب عن أي مقال لا يؤكد على هيبة الدولة وإعادة قوتها.

ولا شك أن "عبد السلام بلعيد"، رجلا وطنيا مخلصا، وجادا في أفعاله واتخذ مواقف إيجابية تحسب له، ولكنه أيضا أخطأ حين حاول أن يحكم سلوكيات المواطنين بقرارات فوقية، حتى أنه اعتبر الكتابات المختلفة التي يشتق منها الإسلام بمثابة إمداد ثقافي للإسلاميين، وأتذكر أنه قبل أن يبدأ الرصاص يطاردنا، وكنت مسافراً إلى القاهرة، طلب مني رجال الشرطة

الإفصاح عن وجهتي بعد سفري إلى القاهرة، فقلت : "إنني ذاهب لأية دولة إسلامية أخرى" ، وحاولوا معرفتها مني، خوفا من أكون مسافراً إلى السودان أو ايران، فقلت للضابط : أعتقد أن القانون يسمح لي بالذهاب حيث أشاء ما دام رئيس الحكومة "يعرض برنامجه على فرنسا" .. فما كان من رجل الأمن إلا أن قام وسلم عليّ معتذراً .

واضح أن هذه المواقف وغيرها قد خلقت نوعا من الإحراج لدى رجال الشرطة ، لكنهم كانوا مجبرين عليها، خصوصا بعد التأكيد الحكومي على المواجهة مهما كانت التكلفة، وهكذا وجد الصحفيون أنفسهم بين مطرقة الجماعات وسندان الحكومة.

وقد شكلت مسألة الإمداد الثقافي للتيار الإسلامي مشكلة أساسية لأجهزة الأمن، وقد تعرضت على المستوى الشخصي والعائلي إلى نوع من المضايقات ، فبالنسبة لي صرت متابعا بعد صدور كتابي المشترك مع شهر زاد العربي الذي عنوانه "الجهاد والثورة" الذي صدر عن الزهراء للإعلام العربي بالقاهرة في ١٩٩٢ ولولا أن بعض رجال الأمن كانوا من التيار المعرّب لواجهت مشكلات عديدة بسببه مع أنه مجرد كتاب تناول بالبحث الفرق بين الجهاد والثورة، ولا صلة له مطلقا بأفكار الإسلاميين في الجزائر .

أما على المستوى العائلي، فقد حجزت زوجتي -مع أنها كاتبة وصحفية- ساعات في مطار "قسنطينة" بسبب حملها لكتابين معها قصد المطالعة، الأول بعنوان الإرهاب في الشرق الأوسط، والثاني بعنوان

"جنرالات الإسلام"، وهو الكتاب الذي أزعج رجال الشرطة، خصوصا وأنه يحمل صور "عباسي مدني" و"عمر عبد الرحمن" و"راشد الغنوشي" و"حسن الترابي" .... الخ، وبما أنها مُحجبة ، وذات حجة قوية في الدفاع عن مواقفها، فقد جعلهم يبقون معها وقتا طويلاً في التحقيق، ولولا معرفة أخيها لبعضهم ؛ لأنهت ليلتها في زنزانة .

إذن سعت السلطة بقيادة "علي كافي" ورئيس الحكومة "عبد السلام بلعيد" إلى استرجاع هيبة الدولة بالقوة ، محاولة تجفيف منابع الإرهاب -حسب زعمها- لكن هذه المحاولة ظلم فيها أناس كثيرون لا علاقة لهم بالإرهاب، ولا حتى بالتيارات الإسلامية، وقد دخل عبد السلام بلعيد في مواجهة حقيقية مع الصحافة الفرنكفونية التي حاول الضغط عليها، لكنه استعمل موقفا أشد تجاه الصحافة العربية، ففي عهده حظرت عشر صحف معربة محسوبة على التيار الوطني .

موقف الحكومة هذا بدأ يمسنا على المستوى الشخصي والعائلي -كما ذكرت- وهو الذي جعلنا في النهاية هدفا للجماعات، فإما أن تسكتنا الحكومات بقراراتها الفوقية الجائرة، وأما أن يسكتنا الرصاص، وإذا كانت الحكومات المتعاقبة قد قضت على حرية الصحافة، وخربت بيوت العاملين في الصحافة، فإن الجماعات قضت على ما تبقى حين بدأت بإطلاق النار .

وقد كانت جماعات العنف مختلفة، وأحيانا متناقضة غير أنها تُجمع على قتل الصحفيين وتشريد عائلاتهم، وأصبحت الصحافة مهنة المتاعب والمصاعب ومهنة القتل اليومي، ولم تكن هناك حماية على الإطلاق، لأنه

لا يمكن حماية الأفراد والمؤسسات ... الخ.

أتذكر أننا ونحن نودع أصدقاءنا وزملاءنا كنا نختفي وراء مهن أخرى مثل التعليم، لكن للإنصاف : أننا لم نكن نخاف قوات الأمن حين تقتحم علينا المقرات مثلنا خوفنا من الجماعات، ذلك لأن قوات الأمن لا تقتلنا بحكم مهنتنا، ثم أن الأوضاع لم تكن قد ساءت على النحو الذي وصلته بعد ذلك، أما الجماعات فبمجرد أن تقرأ اسمك في البطاقة أنك صحفي فأنها تنفذ فيك القتل، وهناك من قتلوا بالخطأ فقط لأنهم يعملون في مؤسسات الصحافة أو يتعاملون معها .

رصاصة واحدة تكفي لقتل أي صحفي، لأن هذا الأخير لا يحمل سلاحاً معه وليست له عداوة مع أي كان، إذن فقتله غير مكلف بالنسبة للجماعات من جهة، وأنه أهم من قتل أية شخصية أخرى حتى لو كان عميداً في الجيش، وقد تزامن ذلك مع قتل الشخصيات ذات الثقة لدى المواطنين، وذلك لتوجيه الرأي العام للإيمان بثقافة العنف .

مع الأيام أصبحت ثقافة العنف هي السائدة، وأصبحت الجماعات الإرهابية تحقق مكاسب ميدانية . حتى أنها تمكنت في سنه ١٩٩٤ من السيطرة على مناطق معينة وسمتها "الأراضي المحررة"، وامتدت سلطتها لبعض القرى حيث صارت تحكم بين القرويين في قضايا الأحوال الشخصية، بل إن تأثيرها وصل خارج الجزائر حين كتبت الصحافة العالمية عن احتمال سقوط العاصمة في مدة وجيزة على أيدي الجماعات .

الملاحظ أن الوسط الإعلامي كان يقدم العديد من المبررات، ويعطي تفسيرات وتأويلات مختلفة للزملاء الذين يسقطون كل يوم، فحين بدأ مسلسل الرعب والموت، في ٢٦ مايو ١٩٩٣، ضد الصحفيين، وكانت الضحية الأولى الصحفي والروائي المشهور "الطاهر جاووت" وأعطِيَ تفسير للاغتيال في الأيام الأولى . هو أن رئاسته لتحرير مجلة القطيعة (رويتير) ، كان يهدف من ورائها إلى قطع أية صلات مع الماضي القريب، ومع الإسلام، وأرجع ذلك لكون أصوله بربرية.

كان هذا مجرد تفسير لما حدث ونقل غير آمن وتشويه للحقائق، ذلك لأن جاووت أغتيل بنفس الأسلوب الذي تم به اغتيال زملائه، فقد أطلقت عليه النار أمام باب العمارة التي يسكنها، لحظة توجهه لسيارته المتوقفة في الحظيرة المقابلة . وما أن جلس في سيارته وأدار مفتاح المحرك حتى أطلقت عليه النار من شاب، فر هارباً بعدها، ولم تكن هناك أية معلومات تبين إن كان جاووت قد أنذر قبل ذلك .

نزل علينا خبر اغتياله كالصاعقة، وبالتأكيد كان الخبر أكثر وقعا على أسماع الصحفيين الفرنكفونيين، لكن بعد شهور دار في الساحة الإعلامية حديث حول اغتياله مفاده أنه كان يترجم رواية "آيات شيطانية"، وعلم الإسلاميون بذلك فاغتالوه، وهذا لم يحدث على الإطلاق، لأن قاتليه لم يكن يهمهم ما يقوم به بقدر ما يهمهم ترويج الخوف في أوساط الصحفيين، وبالرغم من أن اغتيال "جاووت" كغيره من الزملاء لم نعرف خلفيته، إلا أنه منذ مدة دار حديث داخل الصحافة الفرنكفونية متهماً السلطة باغتياله؛

وهو الأمر الذي لايزال مطروحا حول العديد من عمليات العنف .

على العموم فإن اغتيال أول صحفي، نظر إليه في الأوساط الإعلامية من زاوية أن الخطر سيجتاح الصحافة الفرنكفونية فقط، ولن يطال الصحافة المعّربة لكن الأيام كذبت هذه الرؤية، ووضحت الأهداف من اغتيال الصحفيين، وكان أهمها : هو المساحة التي تحققها الجماعات الإرهابية باغتيالها للصحافيين.

المهم أنه رغم البيانات المتضاربة، لم نكن -نحن الصحفيين- على قناعة بأن كثيرا منا سيواجهون نفس المصير، بل إن الاعتقاد كان أنها مجرد عمليات فردية، تأتي ضمن موجة العنف العامة، وبالتالي فليس هناك خطر خاص بالصحفيين، وإنما هو خطر على كل المواطنين لكن تكرار سيناريو قتل الصحفيين بنفس الأسلوب في البداية، وأقصد الترصد، ثم تطوير الأسلوب الذي أتبع مع ثاني ضحية، وهو "عبد الرحمن شركيت" نائب رئيس تحرير يومية "المجاهد" الذي قتل على مقربة من قصر الحكومة، وسبق أن اجتمعت معه مرة واحدة في بداية ١٩٩٢ بعد فوز الإنقاذ .. كان رجلا هادئاً، دائم التأمل -رحمه الله- .

إذن فالفزع الآن أخذ في التزايد، ولم يعد عاماً كما كان في مرحلته الثانية، وإنما عاد من جديد إلى أسلوب مرحلته الأولى أي قتل الشرطة، لكن هذه المرة اغتيال الصحفيين، بأساليب متعددة، سواء بمتابعة خط سيرهم كما حدث في البداية مع صحفي التليفزيون رابح زناني"، والطبيب بوترفيف من الإذاعة، ثم مع إحدى صحفيات الشروق، فهؤلاء وغيرهم

تركوا منازلهم تحت التهديد وحين عادوا للزيارة وجدوا من ينتظرهم .

واضح أن الجماعات الإسلامية المسلحة، في ترصدها للصحفيين، وإتباع ذلك بالاغتيال، عملت على إنشاء خلايا للمتابعة والترصد والتجسس، أثبت معظم الاغتيالات التي طالت الصحفيين جدواها، والمدهش أن هذه الشبكات تتابع الصحفيين في كل مكان يتواجدون فيه أو يتعودون التردد عليه، بل إن بعض عناصر الجماعات تخلى عن مفاهيمه الدينية ولجأ إلى أساليب للتخفي، واستعان بأساليب "الموضة" لقتل بعض الزملاء .

إن ما حدث مع الصحفي "سعيد مقبل" مدير يومية لوماتان ،يبين ذلك ، فقد تم رصد حركته بدقة، حيث كان يتردد على مطعم قريب من مقر جريدته، إذ تسلل عنصران مسلحان بدا من زيّهما أنهما طالبان جامعيان من الطبقة الغنية، سدل أحدهما شعر رأسه في ضفيرة للوراء، وتقدم الإثنان منه مبديان إعجابهما بكتاباته، وعندما اطمأن إليهما صافحه أحدهما مصافحة حارة ومسكه بكلتا يديه، ليتولى الآخر إطلاق النار على "سعيد مقبل" بكل اطمئنان .

وما كادت تمر عشرين شهراً عن إغتيال "الطاهر جاووت" حتى بلغ عدد القتلى ٢٦ صحفياً من مختلف القطاعات ناهيك عن المخطوفين، والذين تعرضوا إلى محاولة الاغتيال ونجوا بأعجوبة، ثم ارتفع العدد بعد ذلك، وقد عايشت عن قرب سقوط كثير من الذين ربطتني بهم الصداقة وأحياناً السفر والغربة من أجل العلم والإعلام، مثل "لحسن سعد الله" مدير مجلة

الإرشاد - لسان حال جمعية الإصلاح والإرشاد .

رغم خوفي الشديد وحزني على الأصدقاء لم أكن أحس بأن هناك من يرصدني، أو يتربص بي، مع أن سكني كان في حي المرادية حيث مقر الرئاسة ووزارة الخارجية، وهي منطقة عرفت الكثير من العمليات، غير أنني فوجئت في أحد الأيام بشاب يطلب مقابلتي، ولم أكن على سابق علم به، وحين أوجس منه فريق الأمن الخاص بالصحيفة خيفة، طلبت منهم أن يسمحوا له بلقائي.

حين جلس الشاب بدا هادئاً، وعندما سألته عن سبب الزيارة قال : لقد كنت أطالع ما تكتبه منذ أن كنت صحفياً بمجلة "الوحدة"، ومازلت أحتفظ بمقالاتك، ثم أخرج لي من جيبه أوراقاً كانت معه، ومنها حواراً أجريته مع "سمير الهضيبي"، وكان حول أسباب التطرف لدى الشباب .

بعد أن وضع أوراق المقالات والحوارات أمامي، سألني : "كيف تَدْعون من خلال الكتابة إلى عدم مسئولية الشباب عن التطرف، وحين نقاوم السلطة تضعونا في صف المجرمين"

وأدركت على الفور أنه لم يقرأ الحوار بوعي كامل، فوضحت له ما جاء فيه ، وكان واضحا أن مستواه الثقافي ضعيف جداً، ولا أدري إن كان قد اقتنع بما شرحته أم لا؟ لكنه لم يزرني مرة أخرى إلى غاية سفري من الجزائر .

والسؤال السابق الذي طرحه زائري، هو نفس السؤال الذي طرحته

الجماعات المسلحة لقيادات إسلامية داخل الجزائر، كانت هذه القيادات قد نمّت في تلك الجماعات روح العداء للدولة، وحين قامت الجماعات بالاغتيالات اعتبرتها متطرفة ومخططة.

المهم أن الأمور تداخلت ولم يعد في الإمكان التمييز بين المواقف، غير أنه مع ذلك لم يكن خوفنا في "مجلة الشروق" من التيار الإسلامي، لقناعتنا أن المعركة مع التيارات الأخرى أشد، لكن بعد مدة إكتشفت أنني قد وضعت ضمن قائمة الذين ينوون تصفيتهم، وكذلك زوجتي، وتلك مأساة سأوضحها لاحقاً.

كانت صحيفة "الشروق العربي" تقود حرباً ضد التيار الفرنكفوني من جهة وضد مواقف السلطة من جهة ثانية، وبما أنني كنت رئيس تحريرها، فقد وضعت في خانة المعارضين، وكنا رغم شعورنا بأن الجماعات المسلحة لن تتعرض لأي منا، إلا أننا لم نملك معطيات، وربما أن هذا الشعور هو الذي جعل بعض الصحفيين يغتال في نهاية ١٩٩٥، كما أن الشعور السابق كان مبعثه الانتشار الواسع للجريدة، حيث بلغ توزيعها ٣٢٠ ألف نسخة، وبالمقابل كنا نخاف أن نقتل من التيار الفرنكفوني، حتى أن الزميل "سعد بوعقبة" كان يقول دائماً : "إذا قتلت فإن قاتلي سيكون من التيار الفرانكوفيلي ."

من ناحية أخرى فإن الرسائل التي كانت تصلنا من أنصار الإنقاذ والجماعات، تحثنا على مواصلة السير على نفس الطريق، غير أنها تلومنا على عدم نشر رسائل المعتقلين الذين اختطفوا من طرف قوات الأمن، وما

كان في مقدورنا النظر في ذلك، نظراً للقانون الذي يحكم العمل الإعلامي آنذاك، غير أننا كنا نتمنى المساهمة في نشر رسائل القراء على الرأي العام، والملاحظ أن رسائل الشكوى من الظلم قد بلغت حداً بعيداً، كما وصلت لبعض زملاءنا في الجريدة وفي مواقع إعلامية أخرى رسائل تهديد، لكن لم نكن نوليها إهتمام يذكر، مع أن معظم التهديدات نُفّذت بالفعل بعد ذلك .

وحين أعود بذاكرتي إلى تلك الأيام الصعبة من تاريخنا الصحفي أجد أننا كنا ضحايا مثل كل أفراد الشعب الجزائري، فقط لأن شهرة الصحفي تضعه في المواجهة دائما، فيكون أول الضحايا.

ولا أُخفي القارئ أنني حاولت بعد كل عملية اغتيال أن أُظهر الثبات والصبر، لكن بداخلي كنت أهتز كل يوم، ربما لأنني كنت أقطن في حي يطلق فيه الرصاص في فترات منقطعة من ليالي الشتاء الطويلة، كما حضرت أيضا تبادل إطلاق الرصاص بين الجماعات وقوات الأمن، وشاهدت عدة مرات إهانة المواطنين من طرف بعض شباب قوات الأمن الذي التحق بالأجهزة متأخراً .

لقد تراكمت معاناتي مع الأيام، وانعكس ذلك بشكل مباشر عليَّ صحتي وأحسست -أحياناً- بفقدان حب الحياة، فأنا لست في حرب مع أي طرف ولا أحسب على أي فريق، وزملائي الذين أُغتيلوا لم يكونوا على عداوة مع أحد، ومع ذلك فقد تمت تصفيتهم، وكنت أُمنِّي نفسي بالمساعي التي يبذلها السياسيون لحل الأزمة، لكن الاغتيالات كانت تزيد

كلما بدأ الحوار بين السلطة والمعارضة، مما يعني أن الوصـول إلى حل كان مرفوضا من الجميع .

وباتساع دائرة العنف والاغتيالات لم تعد مقنعة تلك التبريرات التي نقدمها لأنفسنا خصوصاً حين اعتبرت الجماعات الصحفيين ملة واحدة يجب مقاتلتها، ومع ذلك واصلت عملي دون اهتمام بحماية نفسي أو التخفي والاحتياط، لكن كنت أعود كل مساء محملا بمزيد من الخوف والفزع، وظللت أخفي ذلك عن زوجتي، ولكن بعد أن هُددت هي أيضا من طرف الجماعات، واقتحمت قوات الأمن بيتي، وأيضا بعد لقائي ببعض قيادات الإنقاذ أدركت أن الفزع صار واقعاً.

إذن لا مفر من البحث عن ملاذ آمن، خصوصاً بعد أن زاد عدد الضحايا من الصحفيين .

لكن كيف أترك الجزائر؟

إجابتي كانت العزم على الاستمرار مهما كانت التكلفة، وكان هذا مجرد كلام أقدمه لنفسي، لأن النفس حين تهتز أمام الصعاب يصعب إعادتها إلى حالة التوازن، فالفزع الآن يقتحم بيتي، ويهدد بناتي وزوجتي، والسياسيون لا ينوون التنازل ، فما العمل ؟

***

الفصل الرابع

رياح الخوف في ليالي العمر

* النوم يهجر أجفـاننا .. والقرآن يؤنسنا في ليالي الخوف .
* اغتيال طفلة فلسطينية وأخرى جزائرية يزيد من خوفي على ابنتيّ .
* مطاردة الجماعات للصحفيين، جعلتهم يُغيّرون بطاقاتهم المهنية .
* رسائل التهديد عامة .. والاغتيالات يومية .
* في "عمان" اكتشفت أنني مهدد بالقتل .
* الجماعات تطالبني بالاعتدال أو الاعتزال .
* جيش الإنقاذ يحذر أولاً ثم يقتل .. والجماعات تقتل بلا تحذير .

تناولت في الفصل السابق مزيداً من تفاصيل الـفزع، وتحدثت عن كيفية انتقال العنف والإرهاب من رجال الشـرطة والأمن إلى الصحفيين، واتساع دائرته، وركّـزت على زمـلاء المهنة، ووجود الصحـفيـين بين عنف السلطة وعنف الجـماعـات، ناهيك عن الخـلافـات القائمـة بين الصـحـافة المعـرّبة والصـحـافة الفـرنكفـونيـة، والتي أعطت فـرصـة للجـماعـات لاقـتناص الصحفيين، والشعور بالخطر بعد ذلك .

وفي هذا الفـصل سـأركـز على المـصـاعب التي بدأت أواجـهـهـا على المستـويين الأسري والمهني، وعن الأجواء المصـاحبة لذلك، والتي سـاعدت على زيادة فزعي. وكـانت مرحلة صـعبة جـداً في حياتي، فـالنوم بدأ يترك جفـوني، وعيـون بناتي مـتسـائلة كل يوم، وهي ترى الجنائز على شـاشـات التليـفزيون، وزوجتي في حيـرة من أمرها، حيـث أنها كـانت تعيش أيـاما حزينة من حياتنا، لاعتقادها أن الاغتيال يطاردني في كل مكان .

ما أصعب أن تأتيك رياح الخوف من كل مكان، وفي كل الأوقات، فقد كنت -وزملائي- نرى أن المـوت يتربص بنا في مكان العـمل، في الشارع، في المطاعم والمقاهي، وحتى في البيوت، بل إنه يطاردنا في البيوت أكثر لأن

العودة كل مساء والإجتماع بالأسرة هي أكثر الفرص المواتية للإرهاب .

وحين اتسعت دائرة العنف لتشمل عدداً من زملاء المهنة، صار هاجس الخوف والقلق يخيم على أسر الصحفيين، وعلى الخصوص زوجاتهم وأمهاتهم، وقد كنت في العاصمة مع زوجتي فقط، ولاحظت خوفها عليّ، فحين أتأخر عن موعد عودتي ولو لدقائق، أجدها واقفة على شرفة البيت تترقب عودتي، وبمجرد أن تراني، تحمد الله على عودتي سالماً .

والعودة كل مساء إلى البيوت لم تكن متاحة لكل زملائنا في ذلك الوقت، فمنهم من لا يلتقي بأسرته، وزوجته وأبنائه بالشهور، وأحيانا في لحظات اللقاء يتم قتله. لذلك تعلّم الصحفيون أساليب "الحيطة" والحذر. التي لم تكن أغلبها نافعة في ذلك الوقت مما دفع بالبعض إلى الهجرة آنذاك، خصوصا بعد أن هُدّدوا من طرف الجماعات، وقد كنت من الذين لا يعيرون اهتماما لتلك التهديدات وربما يعود ذلك لكونها لم تصلني بعد، وربما للشائعات والأكاذيب التي كانت تروج، إذ وجد بعض الصحفيين في اغتيال زملائهم مبررا للتغيب عن العمل .

والواقع أن أطرافاً أخرى خارج المجال الصحفي قد استفادت من اغتيال الصحفيين إنها مجموعات المصالح التي كانت ترى ضرورة تعميم العنف، وتوسيع مجاله، حتى يصبح الإرهاب ثقافة، وهناك بعض الجيران كانوا يوّجهون التهديدات للصحفيين، حتى إذا ما تركوا مساكنهم استولوا عليها.

والأمثلة كثيرة نورد واحداً منها : كان أحد أصدقائي الصحفيين

العاملين بالتليفزيون يزورنا كل يوم، طالبا منا مساعدته في الهجرة خارج البلاد، والسبب أن هناك تهديدات تصله كل يوم، فكنا نخفف من حالته، وحاولنا معه أن نعرف إذا كان التهديد من الجماعات الإرهابية، وبعد طول بحث اكتشفنا أن جاره هو الذي يبعث إليه برسائل التهديد من أجل الاستيلاء على مسكنه في غيابه .

ولم تكن حالة الخوف فردية، بل كانت عامة في الوسط الصحفي وغير الصحفي، وتزيد في الليل، حتى أننا صرنا نخشى من أية حركة قرب بيوتنا ليلاً، لدرجة أننا – من كثرة الخوف – لا نميز بين حفيف أوراق الأشجار عندما تتناثر، وتحركها رياح أو نسمات البرد في ليال الشتاء، وبين وقع أقدام جماعات الإرهاب . لقد كانت ساعات الليل تمر طويلة، لذلك كنا نتمنى النهار أن يطول ويقصر الليل، وأحيانا تمنينا أن تكون كل أيامنا –ليلاً ونهاراً– نهاراً فقط، وكأننا في أماكن أخرى من الكون .

كنت أستعين على الخوف في ساعات الليل بقراءة القرآن، وحين آوى إلى فراشي أبدأ في الإستماع إلى القرآن ترتيلاً أو تجويداً، فتعود الطمأنينة إلى نفسي، وبعد مدة أذهب في سبات عميق، وأجد نفسي قد صحوت مبكرا كلي نشاط وحيوية، فأنتظر السائق . بعد أن أكون قد سلمت على ابنتي "الشيماء" وهي ذاهبة إلى المدرسة سيراً على الأقدام، وإن كنت في الأيام الأخيرة أرافقها في الذهاب، وتأتي وحدها في العودة .

وفي تلك الأيام الصعبة صار الخوف عاماً، حتى أنني أذكر عدم يقظتي في أحد الأيام مبكرا كالعادة، وكذلك زوجتي، مما أضاع على ابنتي فرصة

الذهاب إلى المدرسة، ولكن أراد الله بنا خيراً.

فعلى مقربة من مدرستها أطلق ارهابيون النار على أحد رجال الشرطة وركبوا سيارتهم، وحين طاردتهم الشرطة أسرعوا بسيارتهم داخل الأحياء السكنية، وأثناء ذلك وجدوا أمامهم الأطفال، فأصطدموا بهم، فقتلوا طفلتين (جزائرية وفلسطينية)، كانت الساعة آنذاك الثامنة إلا ربعا، وهو الوقت الذي غالبا ما تكون فيه ابنتي أمام باب المدرسة ، لقد التقيت بوالد التلميذة الجزائرية المقتولة، صبيحة اليوم التالي، جاء ليشتري الخبز من الفرن المجاور لبيتي ، كانت علامات الحزن الشديد بادية عليه، وعلى طول الوقت كان يدعوا الله سبحانه أن ينتقم من أولئك الأشرار الذين تسببوا في موت ابنته الوحيدة .

عدت متأثراً بعد لقائي به، وكأب توقعت أن أواجه نفس المصير، ولكنني عدت ثانية إلى باحة الإيمان، محاولا ألاّ أكون أسير الأحداث اليومية، لكن هل استطعت أن أتجاوز ذلك؟!

أبدا لم يكن في مقدوري رغم محاولاتي المتكررة، ولم يكن خوفي على نفسي بقدر ما كان خوفي على زوجتي وبناتي، حيث كنت أخشى أن يصبن بأي مكروه في أي وقت.

كانت أصعب اللحظات بالنسبة لي هي عودتي من العمل، حتى إذا ما أبصرت زوجتي واقفة في شرفة البيت ومع الصغيرتين "الشيماء وميسون" أتوجه بالحمد والشكر لله، أما "رفيدة" فقد كانت آنذاك ماتزال رضيعة

ويكفي أن أرى طلعة زوجتي -شهرزاد العربي- من بعيد، حتى يبدأ الفزع في الرحيل، أما إذا وصلت ورأيت ابتسامتها والبنتين فأتأكد أن الأمور بخير، وينتهي فزعي .

نفس الإحساس السابق، الذي كان ينتابني لحظات ذهابي وعودتي، كان ينتاب أصدقائي ومعارفي من الصحفيين، وقد كان زملاؤنا الموجودين في المكاتب الجهوية أسعد حظاً منا، وإن كان بعضهم قد أُغتيل بعد ذلك، حين عممت الجماعات جرائمها في كل مكان.

وكما ذكرت -سابقاً- فقد كنا نختفي وراء العديد من المهن الأخرى، خصوصا إذا واجهنا الجماعات في الكمائن التي كانت تُقيمها بين الفينة والأخرى، لذلك كنا نبتهل لله سبحانه وتعالى أن لا يجعلها في طريقنا، خصوصا وأن معظمنا لم يكن من سكان العاصمة - أصلا - ومضطر للسفر كل أسبوع، ثم كل شهر، وبعدها صار يسافر كل سنة وفي الأخير صار لا يزور أهله مطلقا، لصعوبة المواصلات البرية .

والفزع يزيد، كلما سمعنا خبر وفاة أحد الزملاء، آنذاك بدت تتقلص الهوة بين الصحفيين من مختلف التيارات، لكننا واصلنا تقديم التبريرات لاغتيال هذا الزميل أو ذاك، وكان واضحا بعد اغتيال العديد من صحفيي التليفزيون بشكل متواصل وسريع ويومي، أن ظهور الصحفيين على الشاشة هو السبب، فبدأ بعضهم بالهجرة، ومن بقى رفض تقديم نشرة الأخبار أو البرامج.

وبعد مدة أصبح التليفزيون الجزائري يعاني من غياب الوجوه المعروفة جماهيرياً، وإعلامياً، غير أن هناك من واصل تقديم برنامجه، مثل الصديق "محمد دحو" الذي كان يعد ويقدم برنامجا ثقافياً، وإن كان الوضع الأمني يؤرقه مثلنا مما دفعه للتوجه بالدعاء إلى الله في المسجد -بعد الصلاة- لحمايته، حسب ما كان يذكره لي عند زيارته لي في مقر الجريدة .

والواقع أن هناك عمليات اغتيال كانت ضد الشرطة، فأصيب فيها الصحفيين، من ذلك العملية التي تعرض لها الصديق "مهدي ضربان"، وكان ضمن أسرة تحرير "الشروق الثقافي"، وسبق له أن كان رئيس قسم "الشباب" في مجلة "الوحدة"، وأصابته في أصبع يده، ولم تكن موجهة إليه في الأساس، وإنما المقصود بها "ابن عمته" الشرطي.

إذ بعد خروجهما من المسجد بعد أداء صلاة العشاء، تعرضا لطلقات نارية، وجهت في الأساس لابن عمته، وأصيب هو بإحدى الرصاصات في أصبع يده اليمنى وواجه الزميل "مهدي ضربان" وضعا صعباً، واستمر عدة شهور متأثراً بالحادث، وتركت العملية أخدوداً في نفسه يصعب محوه مع الزمن، وهناك زملاء أخرين تأثروا بمقتل أصدقائهم أو أقاربهم، وهي الحالة التي صارت عامة حاليا في المجتمع الجزائري .

يلاحظ أنه رغم الاغتيالات المستمرة، والتي مسّت معظم قطاعات الإعلام، إلا أن هناك زملاء وأصدقاء يُشهَد لهم بالمواجهة، حيث كان بعضهم يرى "أن الصحفي معرض للاغتيال في الوقت الراهن لكون البلاد تمر بظروف صعبة، وعليه أن يواجه الواقع ويستمر مهما كانت التكلفة، إذ

لا يمكن للطبيب مثلا أن يتخلى عن مجتمعه في حالة إصابته بمرض الطاعون أو الكوليرا خوفا من العدوى" .. لذلك لابد من مواصلة الطريق .. ومن بين الذين يطرحون هذه الفكرة الصديق "عبد العالي رزاقي" الشاعر والكاتب السياسي، وقد كان آنذاك رئيس تحرير "الشروق الثقافي"، وهو صحفي محترف، رؤيته الإعلامية أشمل وأوسع مقارنة بكثيرين منا وكذلك الصديق "حمراوي حبيب شوقي" الذي صار وزيراً للإعلام للمرة الثانية .

ورغم اختلاف في الرؤى ووجهات النظر مع "عبد العالي زراقي" إلا أننا ارتبطنا بصداقة حميمة، بعد أن عُين رئيس تحرير "الشروق الثقافي" بشهور، ولم أكن قبل ذلك على علاقة به، بل إنني كنت ضد تعيينه، ناهيك عن اختياره عند انعقاد مجلس الإدارة، وكنت أفضل أن يكون بدلاً منه "محمد دحو" أو "عباش يحياوي"، أو "الصغير سلام".

لقد اكتشفت بعد التعامل معه في مؤسسة واحدة -كرئيس تحرير- أنه رجل حرفي، محب لعمله. ومضحي، وجريء يواجه الواقع بكل مرارته، لا يعرف شيئاً اسمه الخوف، أذكر أننا كنا كل مساء، نخرج سويا في سيارته، ونتجه إلى المناطق الساخنة حول العاصمة، لمعرفة الأحداث عن قرب، وهذا يعني أننا لم نكن ملتزمين بالقوانين التي وضعتها السلطة، وقد لا أكون مخطئاً إذا ما اعتبرت أننا الصحفيّين الوحيدَين آنذاك اللذين يملكان معلومات يومية جديدة، ومعظم الذي أرسلناه للصحف العربية التي كنا نراسلها يمثل السبق، فقط لأنه عمل ميداني لم يتوفر للصحف الجزائرية ولا العربية الأخرى .

ولم يكن نشاطنا المشترك قاصراً على مهامنا في الداخل، بل كنا نفضل العمل سويا في الخارج أيضاً، من ذلك زيارة مشتركة قمنا بها إلى "عمان"، ثم "بغداد" .

وفي تلك المهمة اكتشفت لأول مرة أنني مهدد بالقتل، إذ أنه قبل سفري بيوم وصلتني رسالة عادية، قرأتها بسرعة، ولم أهتم كثيراً بما جاء فيها ، لأنني كنت مستعجلاً على ترتيب أوراقي قبل السفر، فقد وضعتها ضمن الملفات التي كنت أنوي الاطلاع عليها أثناء سفري، وعند وصولنا إلى الأردن، وأثناء نقاشي مع "رزاقي" حول الإرهاب في الجزائر، أهدافه، القائمين به، المولين له، وحتى خطابه، تذكرت أنها وصلتني بالأمس رسالة فيها تحذير، ولم أعرها اهتماماً.

وسألني "رزاقي": أين هي ؟ قلت : لا أدري أين وضعتها ؟ لكن بعد فترة قليلة وجدتها ضمن أوراق الملف . سارع الصديق "عبد العالي رزاقي" بقراءتها، وما أن أنهاها، حتي تغيرت ملامح وجهه، وسارع إلى القول : "صديقي هذه رسالة تهديد من الجماعات" ! فعلقت : ولكنها لا تحمل ختم الجماعة ولا توقيع أحد .

فرد رزاقي : "معظم الزملاء استهانوا بهذا النوع من الرسائل، وكان مصيرهم القتل" ، ومكثنا لساعات نفكر سوياً في المستقبل بعد عودتنا، وقد انتابني حزن شديد، وخوف لا مثيل له، فلأول مرة أحس بأنني معني بالاغتيالات بشكل شخصي ومباشر .

ويبـدو أن هذا الفزع الشـخصي المفاجئ قـد ترك أثاره إلى الآن، لذلك أذكر بعض الكلمات التي جاءت في تلك الرسالة، والتي منها :

- سارت الكتيبة تنشر الأهوال في أثر الكتبة .

- اعتـدل أو اعتـزل .

- احفظ (خ) تحفظ .

وكلمات أخرى عديدة أشد لا أذكرها .

وآنذاك حاولنا فك رموز الرسالة، وبعد طول تفكيـر وضعنا إحتمالا أن إحدى الصـحفيات تـعمل مع الجماعـات المسلحة، لأن عبـارة "احفظ (خ) تحفـظ"، تحمل مـعنيين، الأول : موجـه لي شخـصيـاً لكون اسمي "خـالد" وبالتـالي عليّ أن التزم بخطوط مـحددة منهـا : عدم مـواجهـة الجمـاعات، والمعنى الثانـي : موجه أيضـاً لي، ولكن يخص صحفـية اسـمها "خـديجة" كانت قبل سفري قد طالبت بتحويلها من التحرير إلى الإدارة، فهم يريدون مني إبقاءها في التحرير .

وعند عودتنا من السفر، حاولنا -بطريقة غير مباشرة- معرفة الحقيقة من الصحفـية "خديجة" لكن اتضح لنا، أنهـا لا تعرف شيئاً، أو هكذا أفـهمتنا، لكن لم نخـبرها بالرسـالة، غيـر أن تلك الصحـفيـة نفسـها أغـتيلت نهـاية ١٩٩٥، في محطة حافلات، إذ طعنها اثنان بسكين، وحـين استمرت واقفة وصامدة، أطلقا عليها الرصاص، وبذلك انتهت حياتها المليئة بالأسرار.

والمدهش : أنها مُحـجبة، وتحمل ليسـانس شريعة إسلامية، طمـوحاتها،

حسب معرفتي بها، لم تتجاوز الزواج والاستقرار، من أسرة فقيرة تقطن بعيداً عن العاصمة، كانت تساهم في مساعدة أخيها وأسرتها، وبالرغم من أنها أغتيلت -رحمها الله- إلا أنها ستظل محل استفهام، لأن كثيراً من التساؤلات كانت تطرح بين الحين والآخر على طبيعة حركتها .

وفي سياق حديثي عن "خديجة دحماني" عليّ الاّ أنسى أنني حين استقلت من رئاسة تحرير "الشروق العربي" نهاية ١٩٩٤، وقررت السفر إلى الخارج، كرمتني الجريدة في حفل حضره كل الصحفيين فقامت "خديجة" بإلقاء قصيدة تمدحني فيها، وتعدد خصالي، وتساءلت : لمن تتركنا ؟ ذلك لأن علاقتي بكل الصحفيين، جيدة حتى أنها كانت تبكي، وتأثر كثير من الزملاء بما قالت، وأتذكر أن مدير الجريدة وصاحبها "علي فضيل"، قال لها : لقد أرجعت الحفل مأتماً، فأرجوك أن تكفّي ... ربما كانت تبكي نفسها -اللاشعوريا- أكثر مما تبكينا .

أعود ثانية لمسألة التهديد بالرسائل، لقد كانت شائعة ومعروفة، وقد ألقت الشرطة القبض على عناصر من الجماعات ومعهم أسماء الذين ينوون قتلهم، وكثيراً منها كانت الأسماء نفسها التي تصلها التهديدات بالقتل.

غير أن هناك فرقا واضحاً بين الرسائل التي كانت تصل الزملاء من الجيش الإسلامي للإنقاذ، وتلك التي تبعث بها الجماعات المسلحة، فالأولى تطالب الشخص -المهدد- بالتراجع عن موقفه، أو التخلي عن عمله، واعتزاله -أما الثانية- أي رسائل الجماعات، فهي تأتي حادة وقاطعة ونافذة

بالحكم، وتربك الشخص وترهبه قبل اغتياله، والفرق طبعا واضح، فرسائل جيش الإنقاذ، تحاول تفادي الاغتيال ما استطاعت أما الجماعات فالقتل أحد أهدافها، وهذا طبيعي لأن الجماعة المسلحة تعتقد أن الصحفيين الذين طالبوا الجيش بالتدخل لحرمان الإسلاميين من فوزهم في الانتخابات البرلمانية أو الصحفيين الذين لا يهاجمون النظام، ينفذ فيهم القتل، حتى أن أقوالا تنسب إلى "سيد أحمد مراد" الملقب بـ "جعفر الأفغاني"، أحد قادة الجماعة المسلحة في بداية انطلاقها، منها : "من يحاربنا بالقلم نحاربه بالسيف." وهناك من لم يحاربوهم بالقلم ومع ذلك قتلوا .

ومع أن كل الرسائل كانت مخيفة ومرفوضة، إلا أن بعض الصحفيين لم يكونوا يعتبرونها واردة من الإسلاميين، خصوصا أولئك الصحفيين المؤيدين للجبهة الإسلامية للإنقاذ.

وبحجة الدفاع عن المواطنين من طرف قوات الأمن، والبحث عن الإرهابيين في كل مكان أصبحت في سنتي ١٩٩٣ - ١٩٩٤، بيوت الجزائريين، وبالذات في الأحياء الشعبية بالعاصمة ، مناطق للتنافس والنزال بين الجماعات المسلمة من جهة، وقوات الأمن من جهة ثانية، ومنها بيوت الصحفيين أيضاً، ولم يكن المواطنون يخافون زوّار الليل من رجال الأمن قدر خوفهم من الجماعات المسلحة لأن هذه الأخيرة لا تعرف إلا القتل .

ولكون الجماعات المسلحة تأتي متسللة في جنح الظلام، فقد حاول المواطنون حماية أنفسهم بأبواب من حديد، ووضعوا شبابيك من الحديد أيضا، لكن هذه لم تكن مجدية أمام وابل الرصاص المتواصل، مما اضطر

كثير من المواطنين ومنهم الصحفيين إلى هجرة منازلهم، وبعضهم باعها بأبخس الأثمان ليعود إلى منطقته الأولى.

وكأن تلك العمليات جميعها كان هدفها إفراغ العاصمة من سكانها ليحل بدلهم آخرون، وينطبق هذا أيضا على الفيلات والمساكن الفخمة التي أقيمت على مقربة من المناطق السياحية في العاصمة، والتي يمتلكها الأغنياء الجدد، فقد تمكنت الجماعات من الاستيلاء عليها حينا، ومن تدميرها أحيانا أخرى.

بالمقابل، فقد عايشت عن قرب كثيراً من المسئولين السابقين لا يبالون بالهجمات المحتملة من الجماعات عليهم، وعلى مساكنهم، وقد قال لي أحدهم وكان من أكبر الشخصيات المسئولة في عهد الحزب الواحد : "إنني أجوب بسيارتي -المرسيدس- كل المناطق في العاصمة وخارجها، ولا أخشى أحداً .." وكلامه هذا صحيح واقعياً، لأن كثيرين من سكان العاصمة شاهدوه، ناهيك على أنني زرت فيلته أكثر من مرة، فلم أجد حراساً، وإن الحال السابقة تطرح العديد من التساؤلات، خصوصاً أن مسئولين آخرين لم يستطيعوا النجاة، بل نجدهم يُقتلون علانية وفي وضح النهار، مع سبق الإصرار والترصد مثلما حصل مع "قاصدي مرباح" المسئول الأول -السابق- عن الأمن العسكري في الجزائر، وقد أشيع آنذاك أن خلفية قتله تعود : لمساهمته في محاولة توقيف نزيف الدم، وذلك من خلال مدّ الجسور بين الجماعات والجيش ..."

ولقد تضاعف خوفنا جميعا بعد اغتيال "قاصدي مرباح" لكونه رجل أمن بالدرجة الأولى، وتبينا آنذاك أنه كلما دعت قوة سياسية إلى الحوار

كلما زاد عدد القتلى ، وبالذات من رجال الأمن والصحفيين، حيث لم تعد الجماعات تفرق بينهم، وبعد ذلك تطور الأمر إلى اغتيال كل طرف رافض لأعمال الجماعات.

ووسعت الجماعات في أعمال العنف، حيث قررت قتل نساء الطواغيت وأبنائهم، ونقصد بالطواغيت هنا معظم المسئولين، وبالدرجة الأولى ضباط الجيش، وبالتبعية قتل الذين يدافعون عن سياسة الطواغيت، أي الصحفيين، وكذلك أزواجهم وأبناءهم، وإن كان هذا لم يُطبّق إلا بعد ثلاث سنوات، لكن المعروف أن زملاءنا قتلوا أمام أبنائهم وزوجاتهم حيث تؤخذ الزوجة والأبناء جانباً، ويتم قتل الصحفي أمامهم، وإذا استغاثت زوجته تقتل هي أيضاً .

ولترويج ثقافة الخوف، لم يعد أحد يدافع عن الآخر، بل بمجرد هجوم عناصر الجماعات على شرطي في الشارع أو صحفي أو أية ضحية أخرى يتخلى عنها الشعب، والكل يفر هارباً بمجرد إطلاق الرصاص.

وكنت أتصور حدوث هذا لي في أي وقت خصوصاً، وأنني لست مسلحاً ككثير من رؤساء تحرير الصحف الأخرى، بل لم أكن مستعداً لحمل السلاح ، ذلك لأنني -رغم الخوف- مازلت أرى أنني لست في عداء مع أحد، ولكن حادثة غيّرت مجرى كل حياتي، واضطرتني للسفر، إنها حادثة اغتيال مفتش شرطة أمام بيتي، ثم اقتحام بيتي في نفس الليلة، وهو ما سنتابعه في الفصل القادم .

***

الفصل الخامس

الهجرة المفاجئة

* القتيل الذي أفـزع زوجتي لأن اغتيـاله كان أمام بيتي .
* زُوار الثالثة صباحا والتهديد بالقتل .
* قيادات الإنقاذ : زروال لايملك أمره .
* الجـمـاعـات المسلحـة : لقـد قـررنا قـتلك فاستحضري حجتك أمام الله .
* نسألك الرحيل .. موافق ، لكن إلى أين ؟ !
* الآمال الضائعة والمواجهة المكشوفة .

تناول الفصل السابق بعض حالات العنف التي واجهناها - كصحفيين، وانتهت إلى أن الخوف كان حالة عامة ، أبعدت كل مظاهر الفرحة ، وجعلت البعض منا يحتاط كمحاولة منه للنجاة من القتل ، لكن تلك المحاولات لم تكن ناجحة لأن الجماعات كانت تتربص بالصحفيين والشرطة ، وكثير من المواطنين ، كما ركز الفصل السابق على رسالة التهديد التي جاءتني ، والتي حاولت أن أتجاوز تأثيرها النفسي ، وانتهى إلى أن الأحداث التي جاءت بعد ذلك عمدت على زيادة الفزع واستمراريته .

أما الفصل الأخير من أيام الفزع في حياتي -كصحفي جزائري- قبل هجرتي خارج الجزائر، وليست الأخيرة فيما يتعلق بحياتي بشكل عام مادامت هناك حوادث إرهاب تعايشها الجزائر ، وطالت كل المواطنين ، ففيه سأتطرق لأهم المواقف التي مارست عني ضغطا نفسيا ، ودفعتني إلى السفر خارج البلاد .

لم أكن من الذين يؤيدون فكرة الهجرة رغم العروض التي كانت تنهال علينا من بعض الصحف خارج بلادنا ، وقد كان كثير من زملائي يستغربون من رفضي لتلك العروض ، وربما يعود رفضي لأسباب

موضوعية أهمها : أن الصحيفة التي كنت رئيس تحريرها كانت أكثر الصحف نجاحا في الجزائر ، إضافة إلى ذلك فإن هناك روابط واسعة بيني وبين القراء، وربما هناك سبب ثالث هو : سعادتي الحقيقية وأنا أعايش النجاحات التي نحققها كل يوم ، واعتقادي الراسخ في ذلك الوقت أن بلادنا في ظل التعددية في حاجة ماسة إلى استمراريتنا في العمل ، خصوصاً وأننا لم نكن على صلة بأي تيار سياسي ، وإنما كانت صلتنا المباشرة بالجزائر ، والجزائر فقط ، لكن هل دامت هذه القناعة ؟

ما حدث في أحد الأيام عند عودتي من العمل جعلني أعيد النظر في كل قناعاتي ومواقفي ، ففي ذلك اليوم جاءني صديقي "عبدالعالي رزاقي" يطالبني كعادته بالتوجه معه خارج العاصمة لمتابعة اشتباك بين قوات الأمن والجماعات ، وعلى غير عادتي رفضت ، لكنه أصر على ذهابي معه ، وحين وصلنا إلى المكان الذي قصدناه ، وجدنا العملية انتهت، ولم يبق إلا أفراد قوات الأمن .

ولكن بين الذهاب والعودة استغرقنا حوالي الساعة ، بعدها مباشرة اتجهت إلى البيت رفقة "عبدالعالي" ، وحين وصلنا إلى شارع "روباس بيار" بحي المرادية بالجزائر العاصمة ، وجدنا المنطقة مكتظة برجال الشرطة ، وسياراتهم تجوب الشارع بشكل متواصل ، لحظتها علق عبدالعالي على تلك الوضعية بقوله : أكيد أن هناك حادثة اغتيال ، وبالفعل كان الأمر كذلك .

لقد تمت عملية الاغتيال هذه الساعة الرابعة والنصف مساء ، وهو

الوقت الذي تعودت فيه الرجوع إلى البيت ، وبما أن الحادث وقع أمام باب بيتي ، فقد اعتقدت زوجتي أن الطلقات النارية قد صوبت إليَّ ، وحين وصلنا إلى المكان وجدت كل سكان الشارع يقفون محتارين من هول ما رأوا ، وقد سردت لي زوجتي الحادثة على النحو التالي :

"كنت جالسة ألاعب البنات ، وإذا بي أسمع طلقات رصاص متتالية ، تملكني حزن شديد ، وأسرعت إلى شرفة البيت ، لاعتقادي أن القتيل أنت ولا أحد غيرك ، ذلك لأنه تزامن مع وقت عودتك ، لكنني ورغم زوال قلقي حين وجدت القتيل غيرك اندهشت مما حدث ، فقد رأيت رجلاً مرميا على الأرض ، وشابان يلبسان بنطلونات "جينز" يطلقون النار عليه ، وبعد أن تأكدا من قتله ، فرّا مسرعَين ، في تلك اللحظات كان كل سكان الحي الذين يعرفونه ، أو لهم علاقة به يفرون هاربين ويتركونه لمصيره ، ويغلقون أبوابهم ، باستثناء امرأة واحدة كانت تصرخ بشدة مطالبة الناس بنجدتها ، ولكن لا أحد لبى دعوتها، بعدها بدقائق أقبلت ابنته ذات العينين الخضراوين والبالغة من العمر عشرة سنوات ، وأخذت تناديه ، وحين أدركت أنه مقتول بدأت تصرخ بأعلى صوتها وقد ارتمت عليه ، لحظتها خرج الجيران من مساكنهم وكأنهم يعلمون بالحادث لأول مرة ، ومن شرفة البيت كنت أرى العديد من الأمهات يمنعن أبنائهن الكبار من الخروج لرؤيته أو حمايته " .

وبعد أن أنهت زوجتي رواية القصة المؤلمة ، قلت لها : سوف تزورنا الجماعات هذه الليلة، وحين لمحت في عينيها القلق ، أبلغتها بأنني كنت

أسخر فقط ، وبالفعل كنت كذلك.

المدهش أن زوجتي كـانت الشاهد الوحيد على اغتيال ضـابط الشرطة الذي كـان مـفـتش ، وهو جـار لنا لـكن لم نكن على علـم بذلك ، وقـد حاولت زوجـتي أن تجعل بناتنا الصغيـرات بعيدات عن مظهـر القتل ، لكن بعـد زمن عـرفت أن ابنتي الكبـرى "الشـيـماء" وكـان عـمـرها آنذاك ست سنـــوات ، قد شاهدت عملية القتل من بدايتها لنهايتها في ذلك اليوم .

إذن الفـزع حلّ بي على المستـوى الأسرى ، ذلك لأننـا قضـينا ليلتنا في هلع ، وماكـاد منتصف الليل ينجلي ، حـتى أرهقنا وخلدنا إلى النوم ، نوم الخائف طبعـا ، وحين كانت الساعة الثـالثة إلا عشرة دقائق صـباحا ، بكت أبنتي الصغرى "رفيدة" تريد الرضاعة ، وعندما بدأت أمها ترضعها أحست بأن هناك من يحـاول فـتح شـبـاك نافـذة البـيت ، لقـد كنا في الدور الأول مباشرة ، وأيقظتني من النـوم ، وأخبرتني بما يحدث ، فكان ردي : " إن هذا من آثار العملية التي شاهدتيها هذا اليوم" .

بعدها بثـوانٍ تأكدت أن قولهـا صحيـح ، فأسرعت إلى غـرفة المكتب ، لأجد رجلين يحاولان كسر شبـاك النافذة ، ودون وعي مني أسرعت إليهما فطلبا مني أن أفتح النافذة ففعلت.

وحين دخلا وقف أحدهما مُلَـثَّـماً ووجَّـه مسدسه لرأسي، في حين كان الثاني عاري الوجه، ولـم أتمالك نفسي من الخوف ، وحين لاحظا عني ذلك أسرعا بي إلى كرسي في المكتب وأجلساني عليـه ، ووجها لي أسئلة عديدة

منها : "أين بركات عبدالغني ؟

وقبل أن أرد على سؤالهما دخلت زوجتي ، فأمراها بالخروج ، وقال أحدهما لها : لاتخافي إننا رجال شرطة ، فعادت من حيث أتت ، وهي لا تزال مذعورة ، وقد قالت بعد ذلك : إنني كنت أنتظر سماع صوت صراخك حين يقتلوك ، وكان خوفي يقل تدريجيا كلما تأكدت أنك ما تزال تتحدث معهم .

أجبت الشرطيين بعدم معرفتي للشخص اللذان ذكراه ، فلم يقتنعا بكلامي ، واستمرا في استجوابي ، وسألاني ما هي وظيفتك ؟ والإجابة على هذا السؤال تعد من أصعب الإجابات في حياتنا الصحفية آنذاك ، ولحد الساعة لاأدري لماذا جاء ردي سريعا: وظيفتي صحفي ، لحظتها اعتذرا إليّ ، وقررا الخروج ، وحين فتحت لهما الباب وجدت آخرين يطوُقون البيت، وحين ذهبوا جميعا ، أبصرتهم من نافذة البيت فوجدتهم مجموعة كبيرة جاءت بثلاث سيارات ، ومن لحظة خروجهم إلى غاية إشراقة الشمس ، ظلت نافذتي مفتوحة ، والخوف يفتك بنـــــا" .

إن الذين زاروني تلك الليلة ، ودخل منهم اثنان فقط ، ملامحهم توحي أنهم من رجال الأمن ، بدليل أن اللذَيْن دخلا البيت لم يأخذا من عندي أية وثائق ولاصور ولا نقود ، وقد كانت جميع هذه الأشياء أمامهما، بل إنهما على العكس من ذلك حاولا ألاّ يقتربا من تلك الوثائق ، صحيح أن المسدس الذي وجهه أحدهما لراسي أخافني ، لكن لم أشعر أن لحظة انتهاء أجلي قد حانت ، وهذا الشعور بالطمأنينة لا يأتينا عادة -في ذلك الوقت-

إلا إذا تأكدنا أن الذين يحققون معنا ليسوا من الجماعات المسلحة .

وفي صباح اليوم التالي عمّ خبر اقتحام رجال الأمن لبيتي ، والشخص الذي سئلت عنه ، هو رجل متهم بقتل عناصر من الأمن ، وينتمي للجبهة الإسلامية للإنقاذ ، وقد حوكم وبرأته المحكمة بسبب حالته العقلية ، وعلمت أيضا أنه كان يسكن في إحدى العمارات القريبة منا .

لكن بالليل حين استجوبت اعتقدت أن "بركات عبدالغني" هذا هو ضابط الشرطة الذي قتل مساء اليوم السابق، ذلك لأنني - كما ذكرت - لم أكن على سابق معرفة به ، بل إنني لم أكن على علم بوجود شرطي يسكن جوارنا ، وربما يعود ذلك لكوني أراه دائما بملابس مدنية يداعب ابنته .

في يوم اغتياله تتبعه المجرمان من مسافة بعيدة وأصرا على قتله أمام بيته، وقد كان اغتياله ضربة كبيرة لرجال الأمن، إلا أننا بعد أن دفناه وعدنا في اليوم التالي .. روجت شائعات مفادها أن زوجته هي التي كانت وراء اغتياله ، لأنه تزوج بإمرأة أخرى ، ثم اتضح أن هذا الكلام غير صحيح بالمرة وهو من نوع التبريرات التي تقدمها الجماعات وتروجها ليأخذ بها الرأي العام .

في هذه الأثناء كانت السلطة قد أطلقت سراح بعض قيادات الإنقاذ ، وكنت على صلة سابقة بأحدهم ، فزرته مهنئاً بإطلاق سراحه ، وأتذكر أنني سألته لحظتها : "هل الرئيس "اليامين زروال" جاد في الحوار معكم ؟ أجابني : "إنه جاد بالفعل" ، ولكنه أضاف : "أن هذا الرجل لايملك أمره ، وأن

هناك مجموعة تتحكم فيه كيفما تشاء" ، فعلقت ساخرا آنذاك بقولي: "صحيح هو لايملك أمره بدليل أنك أنت الآن خارج السجن " .

وحين سألته عن موقف حزبه من أعمال العنف التي تقوم بها الجماعات أجابني : **"إننا نرفضها ، ونملك الشجاعة في الوقوف ضد الجماعات ، لكن لابد من نزولنا إلى الميدان للتأكد من مدى مسئولية الجماعات ، لأن غيابنا في السجن حال دون معرفتنا لكثير من الحقائق " .**

وعذرته فيما يقول ، وانتظرت كباقي المواطنين موقفاً واضحاً من الإنقاذ تدين فيه الجماعات ، وبعدها بمدة قليلة زرته ثانية .. وسألته عن موقفهم من العنف ، فلم يقدم إجابة مقنعة ، ومن ساعتها قررت أن أتخذ موقفا رافضا وناقدا للجبهة الإسلامية للإنقاذ .

عدت بعدها إلى الجريدة وعقدت اجتماعا لكل أسرة التحرير ، وأعلنت أمام مديرها وصاحبها : ضرورة تغيير خط الجريدة ، أو تغيير رئيس التحرير، وحين سئلت عن السبب، أبديت موقفي العلني من أن الجبهة الإسلامية للإنقاذ التي كنا ندافع عنها باعتبار أنها حزب ظُلم ، هي الآن لا تقف ضد الظلم الذي تُزهَق بسببه أرواح المئات من المواطنين ، وكانت هذه الواقعة من بين الأسباب الرئيسية التي عجلت بسفري من الجزائر .

والواقع أن النقاش مع القائد الإنقاذي السابق لم يكن هو السبب الوحيد والمباشر لسفري ، وإن كان من بين الأسباب الرئيسية - كما ذكرت سابقا - فقد استقلت من الجريدة وقررت أن أفتح مكتبا مستقلا للأخبار ،

بشكل وكالة أنباء صغيرة ، وبدأت بالفعل في اتخاذ الإجراءات ، وسميتها شركة "الهدهد للإعلام والصحافة" .

لكن ما حدث في حياتي الخاصة ، غير كل تفكيري السابق ، وعجل بهجرتي .

ذلك أن الجماعات المسلحة بعثت برسالة تهديد إلى زوجتي تخبرها أنها ستنفذ فيها حكم القتل قريبا ، لكونها تثبط عزائم المجاهدين ، وطالبتها باستحضار حجتها أمام الله ، بل ذهبت الجماعة في رسالتها إلى القول: "إنك تثبِّطين عزيمة ومهمة المجاهدين معتمدة على فتوى شيخك "محفوظ نحناح".

والرسالة كانت مثار الدهشة ، لأن "شهر زاد العربي" عرفت بمدافعتها الشديدة عن التيار الإسلامي ، لكنها في نفس الوقت لم تكن تنتمي لأي تنظيم ، وكانت ترى أن الدفاع عن المشروع الإسلامي طبقا للممارسة الديمقراطية ليست مهمة الإسلاميين فقط ، وإنما مهمة جميع الذين يؤمنون بالديمقراطية ، لذلك حين وجهت إليها تلك الرسالة أحست بضعف المستوى الثقافي للجماعة ، وبضيق الأفق ، وبعدم فهم الآخر .

وللعلم فإن هذه الرسالة جاءت بعد كتابتها لمقال في جريدة "الحقيقة" يدين العنف ، ويخلص إلى أن استمرارية الجماعات في ارتكاب المجازر ضد المواطنين ، سيجعلهم مثل البلاشفة في الإتحاد السوفيتي .

هكذا إذن صار الفزع عاماً لكل أفراد الأسرة ، وصرنا نقضي ليلنا

ساهرين خوفا من مباغتة الجماعات المسلحة لنا ، ومع ذلك فقد حاول بعض الأصدقاء التخفيف من حدة ما نواجهه، إما قناعة ، وإما فقط لإخراجنا مما نحن فيه على المستوى النفسي ، من ذلك اعتبار رسالة التهديد غير ذات أهمية أو القول بأن تيارات أخرى أرسلتها وليس الإسلاميون ، إلى غير ذلك من المبررات ، ولم تكن مثل هذه الأقوال لتغير من حالتنا النفسية أو بالذات زوجتي على اعتبار أنها هي المعنية مباشرة بما ورد في الرسالة .

كانت تقضي الساعات ليلا ونهارا تتأمل بناتها الثلاث ، وتعيش على اعتقاد أننا لو بقينا في الجزائر سنكون ضحايا بلا شك ، وقد تزامن وصول التهديدات إلينا ، مع اغتيال كثير من الزملاء الصحفيين ، ولم تكن محاولات التخفيف مني مجدية وذلك أمر طبيعي ، لكون أنا نفسي كنت في حالة فزع.

والواقع أن رسالة التهديد التي وصلت زوجتي تعني ببساطة أن كلا منا صار مهدداً ، وأن الخاسر الأكبر في العملية سيكون بناتنا الثلاث، وأمام هذه الحالة كان لابد من معرفة وجهة نظر الجهات الأمنية ، وعن طريق بعض الأصدقاء ، أبلغوني ضرورة سفر العائلة من العاصمة إلى منطقة أخرى حتى تهدأ الأمور ، وقد أخذت بالنصيحة ، وسافرت زوجتي إلى أهلها في الشرق الجزائري .

بعد وصولها بأيام قليلة ، قامت جماعة إرهابية بمطاردة أحد الأشخاص، وأطلقت النار عليه ، غير أنه نجا، وكان هذا الشخص يسكن

على مقربة من بيت أهلها ، مما أثر سلبا على حالتها النفسية ، وكنت آنذاك خارج الجزائر ، وبالرغم من أنها حين أبلغتني الخبر هدأت من روعي إلا أنني عشت لحظات قلق وفزع على الأسرة كلها وأنا خارج البلاد .

أما بالنسبة لحادثة الاقتحام لبيتي ، فقد أبلغني بعض الأصدقاء ، أنه لاحماية للصحفيين في المستقبل ، وأنه ليس هناك من حل إلا الهجرة ، ففكرت في الأمر لأول مرة، وأيدت زوجتي فكرة الهجرة لأي مكان ، لكنني آنذاك لم أكن قد رتبت سفري ، فاضطررت إلى التفكير في الاتجاه .

عرض على أحد الأصدقاء العراقيين المهاجر في السويد أن أهاجر هناك، كما عرض على أحد أساتذتي المصريين - وهو الأستاذ والمربي الفاضل الدكتور محمد حافظ دياب - العمل معه في إحدى الجامعات الليبية ، فقررت السفر هناك بالفعل ، لكنني في آخر لحظة غيرتُ وجهتي إلى القاهرة ، حين عرضت على جريدة الشروق التي كنت أرأس تحريرها أن أصبح مراسلها المتجول مع إقامتي في القاهرة ، فكان لها ذلك ، وكان هذا الحل أجدى إليّ بحكم علاقتي القديمة بمصر ، ثقافيا وعلميا وإعلامياً .

والمشكلة رغم أنها تفاقمت حيث لم تتح لي فرصة التحرك أو الاتصال ببعض الاصدقاء لإنهاء التزامات بعينها ، إلا أنها قدمت لي نوعا من الاستقرار النفسي ، لكن هذا لاينفي أن معظم آمالي قد ضاعت ، وأن المواجهة المكشوفة التي كنت أعتمدها ، وعدم الانتماء لأي تنظيم لم تكن مجدية ، لكثرة التداخل بين المواقف السياسية وتعدد المصالح والجماعات .

لقد تركت الجزائر مرغما ، ومع ذلك كله أقول أنه ورغم التهديدات التي وصلتنا ، لم أكن على قناعة بأنه هناك من يتربص بنا ، وأن هناك فائدة لكثير من اللذين يعادون التوجه العربي الإسلامي في مغادرة كثير منا البلاد.

أذكر أننا ونحن نركب الطائرة متجهين إلى القاهرة كانت على الصفحة الأولى لمعظم الصحف صورة "أبو عبد الله أحمد" ، أمير الجماعة المسلحة ، الذي وقّع على رسالة التهديد التي وجهت لزوجتي ، وحينما شاهدت صورته، قلت لها : مادامت قوات الأمن قد تمكنت من اغتياله ، فلا داعي لسفرنا الآن ، ردت : سيظهر أمير آخر وسيتواصل العنف ، وكانت محقة فيما تقول فمنذ ذلك التاريخ وإلى غاية كتابة هذه الكلمات (صيف ١٩٩٨) عرفت الجزائر العديد من أمراء الجماعات ، حتى أنهم أصبحوا أكثر من الجماعات نفسها .

هذه أيام فزع متفرقة ، تجمع بأنه لايمكن الفصل بين ما هو قضية خاصة وقضية عامة ، فقد بدأت العمليات كما رأينا كتصفية لرجال الشرطة ، ووصلت الآن إلى قتل عامة المواطنين، وتلك هي دالة الإرهاب في الجزائر ، تزيد فترات وتنقص أخرى ، وقد لاحظنا أن زيادتها ترتبط بالأحداث الهامة والكبرى في الجزائر ، غير أنه مع ذلك فإن الجماعات تدرك أنه لن تسقط الدولة ، لكنها بدورها لن تترك الذين يشاركون في الشرعية يهنأون بما يحققون .

وفي نظر الجماعات يبدو غير مهم في الوقت الراهن من الذي يصيبه

الفزع ، أو حتى من الذي يسقط ضحية أعمالها ، لكن المهم بالنسبة لها أن تجعل كل الجزائريين في حالة ذعر وخوف ، والذي يتحدث رافضا ، ولا يهادنها ؛ يدفع حياته ثمناً ، وحين كان صديقنا الصحفي "لحسن سعدالله" ، يهاجم الجماعات في كل جلساته ، كان بعض الأصدقاء يلومونه على ذلك، بحجة أن الجماعة لن تتركه حيا ، وقد كنت رأيته قبل سفري بأيام قليلة وهو على نفس الموقف،.

بعد شهر من وصولي إلى القاهرة اغتالته الجماعات ، وما روي لي عن أطفاله كان مشهداً مأساوياً ، إذ قبل أن تؤخذ جثته للدفن ، اقترب منه أحد أبنائه الصغار قائلا : "أعرف أن والدي نائما فقط ، وسيقوم بعد حين " ، لكن الحقيقة غير ذلك، فبالطبع لن يعود "سعد الله" ، كما لن يعود غيره ، لذلك مهما حاولنا أن نبعد الفزع عنا سيظل يطاردنا على المستوى الشخصي والعائلي والاجتماعي والمجتمعي .

إن الغرض من هذه الفصول ليس سرد جوانب فقط من حياة صحفي عايش الإرهاب عن قرب واكتوى بناره ، وإنما هدفها -كما ذكرت في البداية - عدم إعطاء فرصة لاستمرار الإرهاب في بلادنا العربية .. إنه يبدأ بشكل فردي ، وينتهي إلى تدمير مجتمع بأكمله ، وبغض النظر عن التمويل الخارجي والدعم لجماعات العنف المختلفة في الجزائر وفي المنطقة العربية ، وأيضا بغض النظر عن قبول المجتمع أو رفضه في البداية ، **فإن الإرهاب لايضيع الآمال والطموحات الكبرى فقط، ولكنه يدخل الأمة في حرب استنزاف طويلة الأمد .**

إن تلك الحرب آثارها تختلف عن الحروب الأخرى في كونها مع الإنسان وأخيه ، ولا وجود لعدو فيها ، ويمكن القول أنها حرب تنشىء أعداءً جداً من بني الوطن والأمة الواحدة وتلك خطورتها .. إنها فزع دائم، لن تبعده الهجرة ؛ لأن الارتباط بالوطن والأهل يظل قائما، ولا البقاء في المواجهة ؛ لأن الضحايا سيكونون لصالح أطراف بعينها ، وقد جربت الاثنين معاً ، وأتمنى ألا تتكرر هذه التجربة للإنسان العربي خاصة ، ولا للبشر جميعهم .



الفهرس

المؤلف

خالد عمر بن ققه

- كاتب وصحفى جزائرى ، يكتب فى العديد من الصحف والمجلات العربية .

- رئيس تحرير سابق لجريدة العهد الأسبوعية والشروق العربى بالجزائر

- أستاذ محرر بجامعة العلوم والتكنولوجيا - وهران - الجزائر سنتى ١٩٩٠ ، ١٩٩١

صدر له :

(١) الإسلام وحضارة الانتحار ، دار البعث ، قسنطينة ، الجزائر ، ١٩٨١ .

(٢) خصائص الاقتصاد الإسلامى ، دار الصفاء ، الجيزة ، ١٩٨٤ .

(٣) الجهاد والثورة بالاشتراك مع الكاتبة شهر زاد العربى ، دار الزهراء للإعلام العربى ، القاهرة ١٩٩٢ .

(٤) فصول من قصة الدم فى الجزائر ، دار الحكمة ، القاهرة ، ١٩٩٦

(٥) اغتيال بومدين الوهم والحقيقة ، ط ١ ، دار الغد العربى ، القاهرة ، ١٩٩٧ .

ط ٢ ،قصر الكتاب البليدة الجزائر ١٩٩٧ .

(٦) إيران : الحرب والنساء ، مدبولى الصغير ، القاهرة ، ١٩٩٨ .

(٧)رئيس على موعد مع الموت ، دار الهدى ، عين مليلة ، الجزائر ، ١٩٩٨ .

من قائمة الإصدارات

رواية .. قصة

العنوان	المؤلف
ليلة العشق والدم	إبراهيم عبد المجيد
حمدان طليقاً	أحمد عمر شاهين
تباريح الوقائع والجنون	إدوار الخراط
رقرقة الأحلام الملحية	إدوار الخراط
مخلوقات الأشواق الطائرة	إدوار الخراط
دنا فتدلى (من دفاتر التدوين ٢)	جمال الغيطاني
مطربة الغروب	جمال الغيطاني
دموع إيزيس	حسني لبيب
أحزان رجل لا يعرف البكاء	خالد غازي
مسالك الأحبة	خيري عبد الجواد
العاشق والمعشوق	خيري عبد الجواد
حرب اطاليا	خيري عبد الجواد
حرب بلاد غنم	خيري عبد الجواد
حكايات الديب رماح	خيري عبد الجواد
فى لهيب الشمس	رأفت سليم
أنا كنده	كيروجا ترجمة: رزق أحمد
سيرة عزبة الجسر	سعد الدين حسن
شجرة الخلد	سعد القرش
شهقة	سعيد بكر
أيام هند	سيد الوكيل
الممنوع من السفر	شوقى عبد الحميد
الدميرة	د.عبد الرحيم صديق
جسد فى ظل	عبد النبي فرج
الفوز للزمالك والنصر للأهلى	عبد اللطيف زيدان
ليس هناك ما يبهج	عبده خال
لا أحـــد	عبده خال
صعيدى صُح	د. عزة عزت
الشاعر والحرامى	عزت الحريرى
فى انتظار ما لا يتوقع	عصام الزهيرى
إينارو	د. على فهمى خشيم
تحولات الجحش الذهبى	لوكيوس ابوليوس ترجمة د.على فهمى خشيم
سراديب	عفاف السيد
الزجاج المكسور	د . غبريال وهبه
ينابيع الحزن والمسرة	فتحى سلامة
حبرات أنثوية	قاسم مسعد عليوة
ترانزيت	ليلى الشربينى
مشوار	ليلى الشربينى
الرجل	ليلى الشربينى
رجال عرفتهم	ليلى الشربينى
الحلم	ليلى الشربينى
النغم	ليلى الشربينى
الخروج إلى النبع	محمد قطب
رشفات من قهوتى الساخنة	محمد محي الدين
الحبيب المجنون	د. محمود دهموش
فندق بدون نجوم	د. محمود دهموش
نسبح الأسماء	منتصر القفاش
حافة الفردوس	نبيل عبد الحميد
خلف النهاية بقليل	وحيد الطويلة
فرد حمام	يوسف فاخورى

مسرح ..

العنوان	المؤلف
هذه الليلة الطويلة	د.أحمد صدقى الدجانى
اللعبة الأبدية .. (مسرحية شعرية)	محمد الفارس
مملكة القرود	محمود عبدالحافظ

شعر ..

العنوان	المؤلف
أول الرؤيا	إبراهيم زولى
رويدا باتجاه الأرض	إبراهيم زولى
قصائد حب من العراق	البياتى وآخرون
بدلاً من الصمت	درويش الأسيوطى
من فصول الزمن الرديء	درويش الأسيوطى
كتاب الأمكنة والتواريخ	عبد العزيز موافى
إضاءة فى خيمة الليل	على فريد
نصف حلم فقط	عماد عبد المحسن
حواديت لفتدى	عصام خميس
عطر النغم الأخضر	عمر غراب
سراب القمر	فاروق خلف
إشارات ضبط المكان	فاروق خلف
أوراق مسافر	فيصل سليم التلاوى
صلاة المودع	صبرى السيد
دنيــــا تنادينـــا	طارق الزياد
إذهب قبل أن أبكى	د . لطيفة صالح
الغربة والعشق	مجدى رياض
غربة الصبح	محمد الفارس
وَنس	محمد الحسينى
ليالى العنقاء	محمد محسن
غنمة فى حجر صيادها	ناجى شعيب
العجوز للراوغ يبيع أطراف النهر	نادر ناشد
هذه الروح لى	نادر ناشد
فى مقام العشق	نادر ناشد
ندى على الأصابع	نادر ناشد

دراسات ..

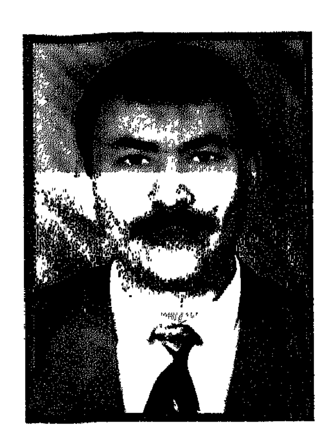
العنوان	المؤلف
هاجس الكتابة	د . أحمد إبراهيم الفقيه
تحديات عصر جديد	د . أحمد إبراهيم الفقيه
حصاد الذاكرة	د . أحمد إبراهيم الفقيه
قراءة المعاش فى بحر التحولات	أحمد عزت سليم
ضد هدم التاريخ وموت الكتابة	أحمد عزت سليم
ثقافة البادية	حاتم عبد الهادى
المثل الشعبي بين ليبيا وفلسطين	خليل إبراهيم حسونة
أدب الشباب في ليبيا	خليل إبراهيم حسونة
العنصرية والإرهاب فى الأدب الصهيونى	خليل إبراهيم حسونة
أباطيل الفرعونية	سليمان الحكيم
مصر الفرعوبية	سليمان الحكيم
البعد الغائب : نظرات فى القصة والرواية	سمير عبد الفتاح
رحلة الكلمات	د . على فهمى خشيم
بحثاً عن فرعون العربى	د . على فهمى خشيم
أعلام من الأدب العالمى	على عبد الفتاح
زمن الرواية صوت اللحظة الصاعدة	مجدى إبراهيم
فى المرجعية الاجتماعية للفكر والإبداع	محمد الطيب
الجات والتبعية الثقافية	د. مصطفى عبد الغنى

تراث ..

العنوان	المؤلف
كشف المستور من قبائح ولاة الأمور	د . أحمد الصاوى
رمضان .. زمان	د . أحمد الصاوى
القصص الشعبى فى مصر	إعداد خيرى عبد الجواد
إغاثة الأمة فى كشف الغمة	
الفاشوش فى حكم قراقوش	
الحكمة الدنية لابن المقفع	

بالإضافة إلى : كتب متنوعة : سياسية - قومية - دينية - معارف عامة - أطفال .
خدمات إعلامية وثقافية (اشتراكات) : ملخصات الكتب - وثائق - النشرة الدولية - دراسات عربية - معلومات - ملفات صحفية موثقة.

أيام الفزع فى الجزائر



حين تفزع من الإجرام فإنك لحظتها تكون فى منتهى الرشد الإنسانى ، فإذا كان الفزع محاولة لإنهاء حياتك أو لإلغاء عقلك ووراثة دينك ؛ فإن عليك محاربته بكل الوسائل وتنبيه الآخرين على أن كل قضية خاصة هى فى أساسها قضية عامة والعكس صحيح أيضاً .

وقبل أن يعم الإجرام كل البلاد العربية ، ولا نجد لحظتها مكاناً نهاجر إليه ؛ فعلينا أن نبين كيف بدأ الفزع فى الجزائر ؟ وإلى أين وصل ؟

أيام الفزع هذه ، جانب من حياة الكاتب والصحفى الجزائرى "خالد عمر بن ققه" كتبت بآهاته وآلامه يرويها من عمق التجربة ؛ لذلك فهى قضية عامة تهم كل مواطن عربى ، بل تهم البشر جميعهم ، وقد كتبت من أجل إحلال الأمان.

الناشر

